

ايشيتايت

والقضايا الفلسفية
لفيزياء
القرن العشرين

مجموعة
من الباحثين

ترجمة
ثامر الصفار



**اينشتاين
والقضايا الفلسفية
لفيزياء القرن العشرين**

- * اينشتاين والقضايا الفلسفية لفيزياء القرن العشرين
 - * د. ب. جريبانوف وآخرون
 - * ترجمة: ثامر الصفار
 - * الطبعة الأولى - ٢ / ١٩٩٠
 - * جميع الحقوق محفوظة للناسر
 - * الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع
- دمشق - هاتف ٤٢٠٢٩٩ - ص.ب ٩٥٠٣ - تلكس ٤١٢٤١٦

الغلاف للفنان: قحطان طلاع

اينشتاين

والقضايا الفلسفية

لفيزياء القرن العشرين

العلمية (فلسفة)
العلمية (نظرية)
- دراسات مقارنة -

ترجمة: ثامر الصفار

تأليف:

د. ب. جريبانوف

ي. م. جولينوف

س. ف. ايلاريونوف

م. ي. اومليانوفسكي

ك. خ. ديلوكاروف

تقديم

في الرابع عشر من آذار عام ١٩٨٩ حلت الذكرى العاشرة بعد المائة لميلاد الفيزيائي العظيم ، ألبرت اينشتاين . لقد عرف تاريخ العلم بضعة علماء فقط من الذين نالوا شعبية شبيهة بشعبية اينشتاين ، فقد تجاوزت شهرته حدود الفيزيائيين ، اذ لم يكن معروفاً من قبلهم فحسب بل من قبل كل المهتمين بالعلوم . وترجع هذه الشعبية إلى الدور الثوري الذي لعبته اعمال اينشتاين في تطور المعرفة الفيزيائية وتناوله لأعمق القضايا التي تُشغل بال الانسان . ان الابداع العلمي لأينشتاين قد ترك بصماته على تطور الفكر الفلسفي في القرن العشرين .

وكان من اولى العوامل التي حددت مساهمة اينشتاين في تطور الفكر الفلسفي هو الدور الذي لعبته نظريته النسبيتان الخاصة والعامة ، في تغيير الصورة العلمية للعالم . فهذه الصورة قد غدت مختلفة تماماً عن الصورة التي رسمتها الفيزياء الكلاسيكية ، اذ تم فيها تفسير بنية الزمان - المكان للكون بطريقة جديدة . وبفضله تمكن جيل القرن العشرين من رؤية العالم بحلة جديدة

تختلف عن الأجيال السابقة . والعامل الثاني كان تأثير الإبداع العلمي لأينشتاين على أسلوب التفكير العلمي . فقد اوجد اينشتاين معايير جديدة للمعرفة العلمية . اما العامل الثالث فقد كان دراسة اينشتاين المتأنية للقضايا الفلسفية الاساسية التي تواجه الفيزياء .

ان الكتاب الحسالي الذي تعرضه للقارئ العربي ، يشمل خمس دراسات مقارنة ، تهدف إلى توضيح المواقف الفلسفية لأينشتاين تجاه الفلسفة الماخية والوضعية الجديدة والنزعة الاجرائية . اضافة إلى توضيح النظرة الفلسفية لهذا الفيزيائي للعالم ، وارتباط اسس الفيزياء الحديثة بالمادية الديالكتيكية . ونأمل ان تتمكن هذه الدراسات من توضيح حقيقة المواقف الفلسفية لهذا الفيزيائي العظيم ، التي شابها الكثير من الغموض .

اينشتاين : النظرة الفلسفية للعالم

احتلت النظرية النسبية موقعاً بارزاً بين الانجازات القائمة للفكر العلمي الحديث . اذ مكنت العلماء من تنقيح وجهات النظر التقليدية والتصورات حول بنية العالم المادي ، مبرزة الروابط العميقة والوثيقة بين الفلسفة وعلم الطبيعة . ولهذا السبب لا يختلف الفيزيائيون والفلاسفة حول اعمال اينشتاين . فقد انجذب كلا الطرفين إلى حدائتها المتميزة .

لقد رأى علماء الطبيعة في النظرية النسبية الحل للتناقضات الداخلية بين الميكانيك الكلاسيكي والكهروديناميكي ، في وقت اعتبرها الماديون الديالكتيكيون برهاناً علمياً طبيعياً على صحة الأفكار حول المادة وخصائصها التي صيغت في مبادئ مؤسسي الماركسية .

لقد نوقشت نظرية اينشتاين عن العالم لعدة عقود مضت . وظهرت حولها العديد من الآراء المتناقضة في الأدب الفلسفي . حيث تم اعتبار اينشتاين بريكليا ، ماخيا ، كانطيا ، وضعياً ، احد انصار الاصلاحية (Conventionalism) ، تجريبياً ، عقلاً . الخ .

وأعتبره بعض الفلاسفة من انصار المادية الديالكتيكية . ومن خلال هذه المناقشات يتأكد لنا شيء واحد ، وهو ارتباط اينشتاين الوثيق بالفلسفة : (ان التفكير النقدي للفيزيائي لا يمكن ان ينحصر في اختبار مفاهيم ميدانه الخاص فقط) . [١ ، ص ٢٠٩] .

لقد شدد اينشتاين في العديد من المناسبات على ان الفيزياء الحديثة لا يمكنها السيطرة على مسائلها الحالية بدون المعرفة الفلسفية : (ان الصعوبات الحالية للعلم تجبر الفيزيائي على الالتصاق بالفلسفة بدرجة اكبر من الجليل السابق) [٢ ، ص ٢٧٩] . لقد حلت مقالات اينشتاين اغلب الاتجاهات الفلسفية المتعارضة ، فقد قرأ اعمال ارسطو وافلاطون وديمقريطس ولاميتري وسبينوزا وبريكلي وهيوم وماخ وكانط وروسل وآخرين ، لكنه لم يشاطر احدهم معتقداته الفلسفية المثالية احادية الجانب . وسيكون من الخطأ الاعتقاد بأن آراء اينشتاين الفلسفية قد تقولبت بالفلسفة المثالية التي كان حسن الاطلاع عليها .

كانت لاينشتاين معرفة واسعة وعميقة بعلم الطبيعة ، كما تشرب بعلم وثقافة عصره . وسيكون ملائماً تماماً تطبيق كلمات هيغل على شخصية مثله (خلال الممارسة يعتمد كل شيء على العقل الذي نسلطه على الواقع . ان العقل العظيم ، عظيم بتجربته ، ومن خلال سلوك الظواهر المتنوع في آن واحد ، يدرك العقل المعنى الحقيقي في الحال) [٣ ، ص ٢٠٦] .

١ - الموقف من المثالية والمذهب الوضعي :

العلاقة بين النظرية والتطبيق :

عدا عن المسائل الأخرى ، كان اينشتاين مهتماً بالمسائل الاستمولوجية مثل (ما هي المعرفة التي يمكن ان يولدها التفكير الخالص بدون الاعتماد على الادراك الحسي ؟ هل توجد مثل هذه المعرفة ؟ وفي حالة عدم وجودها ، فما هي بالضبط

العلاقة بين معارفنا وبين المادة الأولية التي زودتنا بها الانطباعات الحسية؟) [٢] ، ص ٢٧٩].

لقد اكتشف اينشتاين اجوبة متناقضة حول هذه الأسئلة ضمن دراسته للأدب الفلسفي الوفير . وقد تعاطف مع (الريية) ازاء المحاولات لايجاد معرفة عن العالم الخارجي من خلال التفكير الخالص فقط . ولكن اينشتاين لم يتبن آراء هؤلاء الفلاسفة الذين اتخذوا موقف الواقعية الساذجة ، فكتب : (ان هذا الوهم الارستقراطي فيما يتعلق بالقوة الخارقة واللا محدودة للفكر يحمل في جانبه المعاكس وهماً مبتذلاً من الواقعية الساذجة ، وعليه فان الأشياء (موجودة) مثلما ندركها من خلال حواسنا) [٢ ، ص ٢٨١] . وللتغلب على هذه الأوهام التجأ اينشتاين إلى بعض افتراضات بريكلي وهيوم وكانط ، رافضاً أسس ارائهم الفلسفية التي تشكل جوهر انظمتهم المثالية ، وتصوراتهم عن المكان والزمان ، وكذلك مذهب هيوم اللا ادري [٢ ، ص ٢٨٣ - ٢٨٩] . مشيراً إلى استحالة ايجاد مبررات لمذهب بريكلي (الشيء في ذاته) [٤ ، ص ٦٦٩] . ان ما جذب اينشتاين إلى اعمال بريكلي وهيوم وكانط هو ابتعادهم عن الابستمولوجيا المقبولة عموماً والميتافيزيقيا التي كانت مهيمنة على الفيزياء الكلاسيكية .

لقد وجد اينشتاين في تعاليم بريكلي : انه عند اتخاذ قرار معين فان الفرضية تكون ان حواسنا تدرك بشكل مباشر العمليات فقط ، وليس مواضيع العالم الخارجي كما يصر التجريبيون . ولكن بريكلي ينظر إلى مواضيع العالم الخارجي باعتبارها مجموعة من الافكار (الاحاسيس) ، في حين ان الحدس المادي لاينشتاين حفزه للاعتقاد بأن العمليات التي ندركها من خلال اعضائنا الحسية مرتبطة سببياً بالأشياء الموجودة بشكل موضوعي ، والمستقلة عن التصورات الذاتية .

كما أن دراسة هيوم قد اظهرت لاينشتاين ان المفاهيم العامة والجوهرية ، مثل السببية ، لا يمكن استنباطها بصورة مباشرة وواضحة من نتائج الاحساس . وقد وضع هيوم بذلك اساس اللا ادري : (ان كل ما في المعرفة ، هو من مصدر

تطبيقي وليس مؤكداً). وفي حين رفض اينشتاين لا ادوية هيوم، فقد استخدم فكرته في محاربة التجريبية المتطرفة: (كل المعرفة حول الاشياء هي على وجه الحصر، العمل على المادة الأولية التي توفرها لنا الاحاسيس) [٢، ص ٢٨٣ - ٢٨٥].

ان الثغرة التي تركها هيوم في سلسلة المعرفة يجب ان تردم. وقد فهم اينشتاين ذلك حيث وجد طريقة بعيدة عن الصعوبة لدى كانط. فقد اعتقد الأخير انه اذا لم تتمكن النتائج التطبيقية من التوصل إلى معرفة معقولة (موقف هيوم) في حين ان النشاط الادراكي يكون مستحيلاً، بدون مثل هذه المفاهيم كالسبية، الزمان، المكان. الخ، (فهي حسب رأي كانط مقدمة منطقية لأي تفكير) فسيتبع ذلك ان المعرفة الحقيقية تستند على التفكير الخالص وتصبح بديهية في الطبيعة. وعلى أي حال لم يكن هذا الاستنتاج هو ما جذب اينشتاين.

ان العناصر الايجابية التي استعارها اينشتاين من كانط قد صيغت على هذا النحو: اني لا ازيد من حجم العرف الكانطي، ولكنني توصلت إلى فهم الحقيقة الثمينة الموجودة في مذهبه، إلى جانب الاخطاء التي تظهر واضحة اليوم بشكل متأخر. وهي مضمنة في هذه الجملة: ان الحقيقة لا تعطى لنا، ولكن تفرض علينا (بشكل لغز). وهذا يعني بوضوح، ان هنالك شيء مثل البنية المفاهيمية للسيطرة على العلاقات بين الأشخاص وتكمن سلطته في شرعيته. [٤، ص ٦٨٠].

لقد رأى اينشتاين ان كانط قد خطا خطوة إلى الأمام في حل معضلة هيوم، ولكن بالنقيض من كانط توصل إلى الاستنتاج بأن معرفتنا بالعالم الخارجي تنبع من الواقع من خلال العمل الذهني على نتائج الاحساس. ان اينشتاين لم يؤيد اصرار كانط على وجود مفاهيم بديهية، ورأى ان خطاه يكمن في اعتباره مثلاً هندسة اقليدس ضرورية للتفكير وانها معرفة أكيدة (لا تعتمد على التجربة الحسية) تتعلق بمواضيع الادراك الحسي (الخارجية). من هذا الخطأ الذي يسهل

فهمه، استنتج اينشتاين وجود احكام تركيبية (البديية)، التي تنتج من العقل فقط، وانه يمكن بالتالي الادعاء بانها ذات شرعية مطلقة [٤، ص ٦٧٩].

وهكذا نرى ان الفة اينشتاين مع اعمال بريكلي وهيوم وكانط لم توصله إلى التأثير بالاتجاه المشالي في الفلسفة الذي ارتبطت به هذه الاسماء. لقد خاض اينشتاين في اعمال هؤلاء الفلاسفة المثالين كمادي عفوي وديالكتيكي.

فقد استخدم عدة آراء من هؤلاء الفلاسفة للنضال ضد المثالية واللا ادريية والميتافيزيقيا، وخصوصاً ضد الأوهام التي ترجع إلى المعالجات الميتافيزيقية والمثالية لمصدر معرفتنا. كما ان اينشتاين كان قد اشاد باعمال ماخ، ويجب علينا بالطبع ان نفرق بين اعمال ماخ في علم الطبيعة وبين اعماله الفلسفية. ان ما جذب اينشتاين لفلسفة ماخ ليس محتواها، بل انحراف ماخ عن المسائل الاستمولوجية. وعلى الرغم من ان اينشتاين لم يدرس في البداية استمولوجيا ماخ بصورة عميقة، الا انه وجد الاشارة في ان هذا الفيزيائي النمساوي كان مهتماً بأمور كان هو نفسه قد اولها جلّ اهتمامه. ولهذا السبب نراه يبدأ نعيه لماخ عام ١٩١٦ بأسئلة تتعلق بأولوية ماخ في الاستمولوجيا: (ما الذي يجعل مثل هذا العالم الطبيعي الموهوب مهتماً بالاستمولوجيا، ليست ثمة ثروة من الاعمال يجب انجازها في حقله العلمي؟) [٥، ص ١٥١].

وقد اجاب: (انني لا استطيع ان اقتنع بذلك. فاذا ما اتجهت إلى العلم ليس بدافع بعض الاسباب الخارجية، مثل جمع الأموال او الشهرة، ليس (او على الأقل ليس فقط) من اجل السعادة التي يمنحها باعتباره رياضة ذهنية، اذن فان عليّ كخادم لهذا العلم، ان اهتم بالمسائل التالية: ما هو الموضوع الذي يستطيع او سيصل له هذا العلم والذي عليّ ان اهبه نفسي؟ إلى اي مدى تكون نتائجه العامة (حقيقة)؟ ما هو الجوهرى وما هو الشيء الذي يعتمد على المصادفة في التطور؟) [٥، ص ١٠١].

لقد فشل محتوى آراء ماخ الفلسفية في ان يكون الاساس الذي يعتمد عليه

اينشتاين في نظريته للعالم . ولم يشكل ايضاً جزءاً من بنية آرائه الفيزيائية . لقد اثرت مثالية ماخ على (اسلوب التعبير) في اعمال اينشتاين الابداعية حول العديد من قضايا الاستمولوجيا ، ولهذا السبب كتب اينشتاين في مذكراته حول ابستمولوجية ماخ بانها تبدو بالنسبة له (غير مبررة جوهرياً) [٦ ، ص ٢١] . وقد اتضح موقفه تجاه الآراء التي تشكل المحتوى الاصيل لفلسفة ماخ في حوار مع (ريندرانت طاغور) . حيث اكد طاغور (ان عالمنا هو عالم انساني ، والنظرة العلمية له هي ايضاً نظرة انسان علمي . لهذا فان العالم بدوننا ليس موجوداً انه عالم نسبي تعتمد حقيقته على وعينا) [٧ ، ص ٤٢] . وكان رد اينشتاين صريحاً تماماً : (حتى ضمن حياتنا اليومية نشعر بضرورة ان نعزو الواقع المستقل عن الانسان إلى المواضيع التي نستخدمها . . وعلى سبيل المثال اذا لم يكن ثمة شخص في هذا البيت فان المنضدة ستبقى كما هي في موضعها) [٧ ، ص ٤٣] .

ان وضوح هذا الرد على الفلسفة المثالية الذاتية وبنفس القدرة على الماخية لا يترك مجالاً للتعليق . ولهذا يمكن الافتراض ان اينشتاين الشاب كان قد تعامل مع فلسفة ماخ بشكل سطحي ، وفاته ادراك جوهريها . ثم اخذ اينشتاين يدرك ان هنالك عالماً موضوعياً يقف وراء الادراكات الحسية التي تعتبر بالنسبة له صوراً ذهنية لهذا العالم . وفي الوقت نفسه كان اينشتاين بعيداً عن السطحية في موقفه من اعمال ماخ في علم الطبيعة ، التي كان فيها ماخ وكما وضع لينين يجادل باسلوب مستقيم ، دون تطرف مثالي . فقد قام ماخ كعالم طبيعي ، مثلما هو معروف ، بدراسة تاريخ تطور الفيزياء الكلاسيكية ، وكان واحداً من اوائل الفيزيائيين الذين نبذوا المطلقات في الميكانيك الكلاسيكي ، فاضفى سمة النسبية عموماً ونسبية بعض مفاهيمه وسننه التي كانت تعتبر سرمدية ، مشدداً على الترابط الكوني لظواهر الطبيعة .

ولكن فكرة ماخ عن الطبيعة النسبية للمعرفة العلمية قادت إلى انكار سمتها الموضوعية ، في حين ان دراسة اينشتاين لمؤلف ماخ (تاريخ الميكانيك) قد اعطته

فرصة فقط لرؤية الطبيعة من خلال اعين الماديين والديالكتيكيين العفويين . (ان جميع فيزيائيي القرن الماضي (كتب اينشتاين) رأوا في الميكانيك الكلاسيكي شكلاً واسباساً لكل الفيزياء، نعم لكل علم الطبيعة . . وقد كان ارنست ماخ في تاريخ الميكانيك هو الذي هز هذه الحقيقة الدوغماتية، ولهذا فقد كان لهذا الكتاب تأثير بالغ عليّ شخصياً عندما كنت طالباً) [٦، ص ٢١].

وكثيراً ما ارتبطت نظرة اينشتاين إلى العالم بالمذهب الوضعي . وقد تبنى وجهة النظر هذه عدد من الوضعيين امثال موريتز شليك، فيليب فرانك، لنكولن بارنيت، هريبرت كار، وآخرون . وقد وضحنا سابقاً ان اينشتاين لم يتقبل الآراء الاساسية لواحد من الأنواع الرئيسية في المذهب الوضعي - فلسفة ماخ - ولتوضيح عدم وجود أي مبرر للتأكيد على ان نظرة اينشتاين للعالم كانت متطابقة مع المذهب الوضعي، دعونا نرى ما كتبه اينشتاين حول هذه المسألة . ان الفلاسفة الوضعيين معادون للميتافيزيقيا (الفلسفة) ومائلها . فالمفاهيم الأساسية للفلسفة (التقليدية) ليس لها معنى علمي حسب رأيهم، وعلى الفلسفة ان تتحرر منها . هذا الموقف الوضعي اقلق اينشتاين . لقد آمن ان هيوم قد (اوجد خطراً على الفلسفة في نمو . . الخوف من الميتافيزيقيا الذي بات علة التفلسف التجريبي المعاصر) [٢، ص ٢٨٩]. وفي تعليقاته على كتاب برتراندروسل (المعنى والحقيقة) حدد المفارقات التي يمكن ان تنشأ من سعي الوضعيين إلى فصل الفلسفة عن العلم : (ان هذا الخوف يبدو بالنسبة لي على سبيل المثال سبباً في فهم ان (الشيء) هو عبارة عن (رزمة من الخواص) وهكذا فان (الخواص) يجب ان تؤخذ من المادة الأولية الحسية . بمعنى ان شيئين يكونان شيئاً واحداً، اي نفس الشيء اذا ما تطابقا بكل الخواص، فارضة على المرء ان يعتبر العلاقات الهندسية بين الاشياء مرتبطة بخواصها (بمعنى ان على المرء ان ينظر إلى برج ايفل في باريس وإلى البرج الموجود في نيويورك كشيء واحد) [٢، ص ٢٨٩].

لقد ادرك اينشتاين ان اصرار الوضعيين على التقليل من مهمات الفلسفة والعمل على نتائج الاحساس وانكارهم لدراسة جوهر ظواهر العالم الخارجي يحمل اخطاء عميقة ذات نتائج مهلكة . وقد كان اكثر حدة في انتقاده لمواقف الوضعيين في رسالته إلى صديقه (موريس سوليفين) : (في هذه الأيام ، تهيمن وجهات النظر الذاتية والوضعية بشكل مفرط . ويبدو ان الحاجة إلى فهم الطبيعة كحقيقة موضوعية قد باتت ضرراً محمياً . ان الرجال هم ايضاً عرضة للايحاء مثل الخيول ، ولكل عهد نمط مهيمن ، والأغلبية لا ترى حتى الطاغية المستبد والمسيطر عليهم) [٨ ، ص - ص ٧٠ - ٧١] . لقد حدد اينشتاين ان جذور المذهب الوضعي كانت في فلسفة بريكلي : (ان ما اكراه في هذا النوع من المحاججة هو اساس الموقف الوضعي ، الذي اعتبره غير مبرر من وجهة نظري ، ويبدو لي انه يشبه المبدأ البريكلي (الشي في ذاته) [٤ ، ص ٦٦٩] . لقد عزا اينشتاين عدم اهتمام بعض العلماء بنظرية الذرة إلى المذهب الوضعي . (هذا مثال واضح (كتب اينشتاين) عن حقيقة انه حتى الطلبة ذوي الروح الجريئة والموهبة الفذة يمنعون من تفسير الحقائق بسبب التحيز الفلسفي . ان التحيز يكمن في ان الحقائق بذاتها يمكن ويجب ان تولد معرفة علمية بدون بنية مفاهيمية حرة) [٦ ، ص ٤٩] . التي هي استناداً لاينشتاين نتاجاً لبنيتنا المفاهيمية التأملية ، على الرغم من ان المعرفة ليست نتاج التفكير الخالص . فهي تستخلص من النتائج الحسية التي لا تعطي لوحدها اية فكرة عن الحقائق بدون المعالجة المفاهيمية .

٢ - الموقف من الدين :

تحدث اينشتاين عن الدين في العديد من المناسبات ، ولكن هل ثمة ارضية للتوصل إلى ان اينشتاين كان متديناً؟ . هذا الاستنتاج الذي حاول العديد من الفلاسفة اللاهوتيين اثباته . دعونا نناقش موقف اينشتاين من الدين ، ماذا قال عنه وكيف فهمه؟ . لقد اعترف اينشتاين في مذكراته انه كان (متديناً) في طفولته مثل

الكثيرين من معاصريه، ولكن ذلك قد انتهى بشكل حاد عندما بلغ الثانية عشرة. (من خلال قراءتي للكتب العلمية العامة توصلت إلى قناعة بأن اغلب القصص الموجودة في الانجيل لا يمكن ان تكون حقيقية، وكانت النتيجة هي حرية التفكير) [٦، ص ٥]. وفي مقالته (الدين والعلم) حاول اينشتاين ان يثابح بين اسباب الافكار الدينية والايان بالقوى الخارقة إلى آخره. وآمن بان الدين تاريخياً في الطبيعة، وينبثق كما هو في مرحلة معينة من تطور المجتمع. فعند شعوب مختلفة وفي مراحل مختلفة من تطورها تولدت هذه الأفكار الدينية لاسباب مختلفة. وحسب وجهة نظر اينشتاين فان (الكائن السرمدى . . هو تحقيق للكينونة الانسانية) [٧، ص ٤٢].

ولم يجد اينشتاين أي مبرر للآجواء إلى الدوغما الدينية لتفسير الظواهر الغامضة. (ان الانسان المقتنع تماما بالعملية الشاملة لقانون السببية لا يمكن ان يفكر للحظة واحدة بفكرة الخالق الذي يتدخل في سياق او مجرى الأحداث. بشرط، انه يأخذ طبعاً فرضية السببية بشكل جدي تماماً. ان الكائن الذي يكافئ ويعاقب سيصبح غير مقنع بالنسبة للانسان لسبب بسيط هو ان نشاطات الانسان تنبع من الحاجة والضرورة، الداخلية والخارجية، ولهذا فهو (الانسان) غير مسؤول عنها كعدم مسؤولية اي جماد تمر من تحته حركة معينة) [١، ص ٣٩].

وبغض النظر عن موقف اينشتاين الرفض للدين ولفكرة وجود الخالق، فقد اتجه الى ما يسمى (الدين الكوني). فما هي حقيقة هذا الشعور الديني، وماذا يعني؟. ان خيبة الأمل لدى اينشتاين بالاديان (الرسمية) وتحديد الطريق إلى الفردوس السرمدى، قد دفعته في اتجاه معاكس، اتجاه العالم الواسع الموجود موضوعياً بدون تدخل الانسان. (ان التأمل والتفكير بهذا العالم - الحديث لاينشتاين - مغريان مثل التحرر. ولقد لاحظت الآن ان العديد من الناس الذين تعلمت احترامهم وتكبيرهم قد وجدوا حرية داخلية وأمان في تكريس العمل مع هذا العالم. . ان الطريق إلى هذا الفردوس لم يكن مريحاً ومغرياً مثل الطريق إلى

الفردوس الديني، لكنه اثبت استحقاؤه وجدارته بالثقة، ولن آسف ابداً على
اختياري له). [٥٦، ص ٥].

لقد اسرغموض الكون اينشتاين، وفتنته تكمن في ملاقاته المجهول. (انه
كاف بالنسبة لي - كتب اينشتاين - ان اضع حدساً مذهلاً لهذا الغموض وان
احاول جاهداً صياغة تعبير محدد في عقلي للبناء الرائع لكل ما هو موجود) [٩،
ص ٢٥٥].

لقد آمن اينشتاين بطاقة وقدرة العقل البشري على حل الألغاز الصعبة
للكون. لكنه آمن ايضاً ان هذا الهدف يمكن تحقيقه فقط من خلال تحرير المرء
لنفسه من قيود (الذاتية البحث)، من العادات التي تولد الاحاسيس الدائية
الاستبدادية. (ان تشعر بوجود شيء يمكن اختباره وراء شيء من الصعب ان
تبلغه ارواحنا، شيء يصل جماله وكماله بشكل غير مباشر، اشبه بالصدى
الضعيف، هذا هو التدين. وهذا المعنى فاناً متدين) [٩، ص ٢٥٥]. واستناداً
لاينشتاين (ان شعور الدين الكوني. يمكن ان يعطي اصل الفكرة الغامضة
حول الله واللاهوت) [١، ص ٣٨]. انه تقريباً يلهم العالم لادراك سمو وروعة
نظام الكون.

٣ - حول استقلالية العالم عن الوعي:

لقد رأينا ان اينشتاين لم يشاطر المثالية آراءها كما صيغت من قبل ممثليها
الكلاسيكيين، بالرغم من رجوعه بين آونة واخرى إلى اعمالهم. حيث رأيناها
رافضاً الافتراضات الفلسفية الاساسية للمثاليين او متحدثاً بصراحة عن تأثيرها
السلبى على علم الطبيعة. وبالطبع توجد هنالك بعض التعابير في اعمال
اينشتاين كان قد استعارها من المثاليين، ولكن ليس بشكل حرفي. ونتيجة لذلك
يمكن ان يتولد انطباع بان اينشتاين قد شاطر وجهات النظر المثالية لبعض هؤلاء
الفلاسفة. وثمة ظرف آخر يمكن اخذه بالحسبان هنا، وهو ان اينشتاين قد ميز بين

الفرضيات العلمية وبين الاستطرادات الادبية ، او كما يصوغها هو (الصياغة الادبية) [١٠ ، ص ٢١٣]: (عليك ان تميز بين الفيزيائي والاديب ، عندما تجتمع هاتان الصفتان في شخص واحد . . ان ما اعنيه هو وجود كتاب علميين . . . يمكن ان نقول انهم لا منطقيين ورمانيين في مؤلفاتهم العامة ، ولكن في اعمالهم العلمية نراهم مستنبطين منطقيين) [١٠ ، ص ٢١١].

في مثل هذه المحاولات الادبية يكون اينشتاين مذنباً تماماً. بمعنى اننا لو قرأنا هذه الأعمال ، آخذين بنظر الاعتبار شكل واسلوب التعبير فقط ، بغض النظر عن المحتوى ، مهملين المحتوى وراء الشكل ، والمذهب وراء الجمل المنفصلة ، فعلياً هنا اعتبار اينشتاين ماخيا او كانطيا او أي شيء آخر. ولكن يجب ان لا ننسى ان مثل هذا النوع من الشرح او العرض للأفكار العلمية ليس فقط من صفات اينشتاين ، فالعديد من علماء الطبيعة الغربيين كانوا عرضة لذلك .

والآن لو سلمنا جدلاً بان اينشتاين كان معارضاً للمثالية ، فلنا الحق ان نسأل : وماذا كان موقفه من المادية الديالكتيكية ؟ الحقيقة ان اينشتاين لم يعط توضيحاً وافياً لنظريته المادية إلى العالم في أي عمل من اعماله ، ولن نجد اية اشارة إلى المادية الديالكتيكية بوصفها علماً . لهذا يمكن لنا ان نناقش موقفه من فرضيات منفصلة للمادية والديالكتيك .

لقد ميز اينشتاين بوضوح بين اتجاهي الفلسفة ، وبالتالي بين وجهتي النظر حول العالم الخارجي - المادية والمثالية . وبخلاف ماخ واتباعه ، فقد عارض وجود اتجاه ثالث في الفلسفة ، اتجاه وسطي :

(ثمة تصوران مختلفان حول الطبيعة والكون :

١ - العالم هو وحدة تعتمد على البشرية .

٢ - العالم هو واقع مستقل عن عامل الانسان) [٧ ، ص ٤٢].

فلأي من هذين التصورين كان يميل اينشتاين؟ .

لقد طرح الكاتب الايرلندي جيمس مورفي السؤال التالي اثناء حوار له مع

اينشتاين : (لقد ذكر اسمك بشكل واسع في الصحافة البريطانية في معرض شرحها للنظرية التي تقول ان العالم الخارجي مشتق من الوعي) فاجاب اينشتاين على ذلك قائلاً : (لا يوجد فيزيائي يؤمن بذلك ، والا لن يكون فيزيائياً . عليك ان تفرق بين الصياغة الادبية وبين الرأي او القرار العلمي . . لماذا يكون على المرء ان يحدق في النجوم اذا لم يكن مقتنعاً بوجودها فعلاً؟ . . اننا لا نتمكن منطقياً من اثبات وجود العالم الخارجي مثلما تستطيع انت الآن ان تثبت اني اتحدث معك او اني موجود هنا امامك . فانت تعرف اني موجود هنا ولن يوجد أي مثالي ذاتي يستطيع دفعك إلى الايمان بعكس ذلك) [١٠، ص ٢١٢ - ٢١٣].

اتهم بعض المثاليين اينشتاين بانه من اتباع مذهب الانانة - او مذهب الانا وحدية Solipsism . حيث ادعوا باستحالة استنتاج أي شيء من مذهب اينشتاين سوى الشخصية المنعزلة ووعيها . فالعالم الخارجي والاشياء الاخرى موجودة فقط في الوعي المنفرد والمنزل . وقد رد اينشتاين على هذا الاتهام : (ان المهرجيسك يصر على ان النظرية النسبية تقود إلى مذهب الانانة ، وأي مختص سيعتبر ذلك مجرد نكتة) [١١]. ولكن اينشتاين ، برغم وجهات نظره الصحيحة عن العالم الخارجي ، قام بوضع بعض الصياغات على هذا النحو: (ان موضوع كل العلوم ، سواء كانت علوم الطبيعة أم الفسيولوجيا ، هو تنسيق خبراتها وجعلها في نظام منطقي) [١٢، ص ١]. او : (ان التبرير الوحيد لمفاهيمنا ولنظام المفاهيم هو انها تقوم بعرض صعوبة وعقدية تجاربنا) [١٢، ص ٢].

هذه وغيرها من الصياغات والعبارات التي تحمل نفس السمة ، كان لها عظيم الفائدة لأولئك الذين يرغبون في رؤية العالم الكبير كواحد من المثاليين . وبالفعل فاذا استمر المرء في هذه العبارات فسيخلص الى ان اينشتاين كان ملتصقاً بوجهة نظر بعيدة عن المادية بخصوص المسألة الاساسية في الفلسفة . ولكن اذا درس المرء مذهب بشكل كامل ، فسيرى ان تشديده على الاحاسيس والادراكات الحسية ، خلال مناقشته لاهداف العلم والمفاهيم العلمية ، لا يعني بأي شكل من

الاشكال انه لا يرى العالم الخارجي وراء الادراكات الحسية ، التي هي بالنسبة لبريكلي وماخ ، جوهر العالم . اما بالنسبة له فان الادراكات الحسية هي تصوراتنا او نسخة اولية عن العالم الموضوعي . والفقرة التالية توضح وجهة النظر هذه (ان الايمان بوجود عالم خارجي مستقل عن الذات المدركة هو اساس علم الطبيعة . . ان الادراك الحسي يعطي فقط معلومات عن هذا العالم الخارجي . .) [١ ، ص ٢٦٦] .

لقد ادرك اينشتاين بصورة واضحة السمة الموضوعية للطبيعة والسمة الذاتية للادراكات الحسية ، اللتان تحددان حصره لاهداف العلم بدراسة العلاقات بين الادراكات الحسية ، وافترض على العكس دراسة العلاقات بين مواضيع العالم . لأن اينشتاين افترض وجود الواقع الموضوعي وراء الادراكات الحسية . لهذا فقد شرح اينشتاين اهداف العلم كما يلي (ان الفيزياء هي محاولة للسيطرة مفاهيمياً على الواقع كما هو وبشكل مستقل عن كونه مراقباً) [٦ ، ص ٨١] .

٤ - اصل مفاهيم العلم / مسائل عامة :

لقد استخدمت بعض الفقرات حول اصل المفاهيم العلمية لاينشتاين من قبل بعض المفكرين للتأكيد على ان اينشتاين كان يرى بان المفاهيم تشتق من الحقيقة كنتاج للنشاط الادراكي الحر .

لقد اوضحنا سابقاً ان اينشتاين كان يحمل وجهة نظر سلبية لفكرة كانط حول الطبيعة الفطرية للمفاهيم العلمية أو المقولات . ومع ذلك فقد كتب في بعض الأحيان ، ان المفاهيم التي تتولد خلال عملية التفكير هي ، ومن زاوية منطقية بحث ، ابتكارات حرة للعقل . كيف يمكن ان نفسر هذا القول من اينشتاين ؟ الا يعبر ذلك عن حقيقة ان المفاهيم العلمية تنبثق من الادراكات الحسية المتأتية من العالم الخارجي ؟ وان عقل الانسان هو مصدرها ؟

ان مثل هذا الاستنتاج سيكون مبسراً. فقد انطلق اينشتاين في المسائل
الابستمولوجية من الوجود الموضوعي للعالم المنعكس في وعي الانسان من خلال
الادراكات الحسية. فالمفاهيم العامة بالنسبة له هي عبارة عن خلاصة مجردة لاهم
سمات مساحة معينة من الظواهر والعمليات التي يدركها الانسان من خلال
الحواس. (ان المفاهيم - كتب اينشتاين - تنبثق من الممارسة عن طريق
(التجريد)، اي من خلال حذف جزء من محتواها مثلاً) [٢، ص ٢٨٧]. ان
المفاهيم ليس لها معنى خارج ارتباطاتها مع الادراكات الحسية ومع البيئة.

ولكن هذه المفاهيم (نفوذ وسلطان علينا بحيث ننسى مصدرها الأصلي
ونأخذها كشيء ثابت غير قابل للتغير. ولهذا تأخذ طابع (ضرورات التفكير)
(بديهية معطاة لنا). الخ. ان الطريق إلى التقدم العلمي قد اعيق تماماً بهذه
الاحطاء لفترة زمنية طويلة. ولهذا فهي ليست مزحة تافهة على الاطلاق عندما
نشغل بتحليل المفاهيم التي مضى عليها فترة طويلة، وابرار الظروف التي تتوقف
عليها جدارتها ومنفعتها، وكيف انبثقت بشكل منفرد من النتائج التطبيقية.
وبذلك يتلاشى سلطانها ونفوذها علينا الى حد كبير. وتحذف اذا لم يكن
انسجامها مع المواضيع المعطاة قد تم وفقاً لدراسة متأنية، او تبدل اذا كان في
الامكان انشاء نظام جديد ربما نفضله لبعض الاسباب) [٥، ص ١٠٢].

ورأى اينشتاين ايضاً ان الادراكات الحسية بحد ذاتها غير متماثلة او متطابقة
مع محتوى المفاهيم. وهي بمثابة مواد بناء لهيكل الجهاز المفاهيمي للعلم. وادرك
ان النتائج التطبيقية يجب ان تعامل او تعالج عقلياً.

ان التحول الديالكتيكي المعقد من الاشكال الحسية للانعكاس إلى اصل
المفاهيم هو ما فسره اينشتاين بـ (الابتكارات الحرة للعقل البشري) [١،
ص ٢٧٢].

وعلاوة على ذلك فقد كان يمتلك فكرة اخرى غريبة نوعاً ما عن هذه
(الحرية): (لكن حرية الارادة هي من نوع خاص، فهي ليست متناظرة بأي

شكل من الاشكال مع حرية كاتب الرواية ، في حين انها تشابه حرية الرجل المتشغل في حل لغز معقد من الكلمات المتقاطعة . فربما يقوم ، وهذا ما يحصل بالفعل ، بافترض أية كلمة على انها الحل ، ولكن دائماً توجد كلمة واحدة فقط يمكن ان تحمل اللغز . انها حقيقة ، ان الطبيعة - كما تدرك من خلال حواسنا الخمس - تأخذ سمة لغز الكلمات المتقاطعة . والنجاحات المكتسبة من نتائج العلم تشجع فعلاً هذه الحقيقة) [١ ، ص - ص ٢٩٤ - ٢٩٥] .

وهكذا نرى ان التشكيل (الحر) للمفاهيم هو نفسه كما لو اننا فصلناها عن الواقع الموضوعي ، كما يراها اينشتاين . وكلما زادت أهمية المفاهيم استخدم اينشتاين مصطلح (الحرية) ليوضح ان المفاهيم تختلف نوعياً عن النتائج الحسية ، وانها لا يمكن ان تستنبط بصورة مباشرة من المادة التطبيقية دون استخدام شيء من المعالجة الذهنية .

٥ - اصل المفاهيم الرياضية :

في بعض الاحيان يقدم اينشتاين بوصفه مثالياً استناداً إلى تفسيره لبعض المسائل العامة في الرياضيات ، وان جولة متعمقة في مؤلفه (الهندسة والتجربة) يمكن ان تثبت ذلك . حيث يقول فيه (ان الفرضيات الرياضية تعود إلى مواضيع خاصة بخيالنا ، وليس إلى مواضيع الواقع ، وهكذا فان الرياضيات كانت نتاجاً للفكر البشري المستقل عن التجربة) [١ ، ص ٢٣٣] . ولكن اذا قرأ المرء كل المؤلف اضافة إلى الشروحات العديدة الأخرى لاينشتاين لمسائل عامة في الرياضيات سيغدو واضحاً عدم وجود أرضية لاتهامه بتفسير مثالي للرياضيات . لقد انطلق اينشتاين من حقيقة ان الرياضيات متجذرة في العالم الخارجي ، وتنشأ من حاجات الناس العملية : (من المؤكد ان الرياضيات عموماً ، والهندسة خاصة تدين بوجودها إلى الحاجة لمعرفة شيء ما حول سلوك مواضيع الواقع . ان كلمة الهندسة والتي تعني طبعاً قياس الأرض تثبت ذلك ، لأن قياس الأرض يجب ان

يجري ضمن امكانيات ترتيب مواضيع طبيعية معينة، اي مع اجزاء من الأرض، خطوط القياس، عصا القياس . . الخ) [١، ص ٢٣٤]. وبالطبع فان الرياضيات قد انبثقت كي تسد وتلائم حاجات المجتمع العملية. ومن خلال تصويرها للمواد الجديدة من العالم الخارجي تصبح نظاماً تجريبياً بشكل واضح. وتلك السمة التجريدية التي يمكن ان تؤدي في مرحلة معينة إلى انفصال فرضياتها عن العالم الحقيقي، شيء استغله المثاليون لاغراضهم. كتب اينشتاين حول هذه المسألة ما يلي (انه كالمخطأ المميت الاعتقاد بان الضرورة المنطقية التي تسبق كل التجارب، كانت هي اساس الهندسة الاقليدية ومفهوم المكان المتعلق بها، هذا المخطأ المميت يظهر من حقيقة ان الاسس التجريبية التي يستند اليها بناء البديعية للهندسة الاقليدية قد تم نسيانها تماماً) [١، ص ٢٩٨]. لقد ادرك اينشتاين ان الرياضيات كانت مرتبطة بالعالم الخارجي ليس فقط من ناحية منشئها، من خلال ماضيها كما يقال. ان فرضياتها تعكس الواقع دائماً. ويكمن معيار حقيقة الرياضيات ومصداقيتها في التطبيق العملي. (ان الهندسة يمكن ان تكون حقيقة او كذباً، استناداً إلى امكانياتها في (اقامة) علاقات صحيحة وقابلة للاثبات بين تجاربنا) [١٣، ص - ١٥٩ - ١٦٠].

وهاكم ما كتبه انجلز حول نفس المسائل ضمن هجومه العنيف على آراء دوهرنغ: (مثلها مثل باقي العلوم، فان الرياضيات انبثقت من حاجات الناس . . لكن، تما في مختلف اجنحة الفكر، وفي مرحلة معينة من تطور القوانين، التي تم استخلاصها من العالم الواقعي، تنفصل عن هذا العالم الواقعي، وتجابه به باعتبارها شيئاً مستقلاً، باعتبارها قوانينا قادمة من الخارج وينبغي على العالم ان يتطابق معها. وهكذا حدثت الأمور في المجتمع والدولة، وبهذه الطريقة، وليس بأية طريقة اخرى، فان الرياضيات (البحثة) قد (طبقت) لاحقاً على العالم، بالرغم من استعارتها من نفس العالم، وهي لا تمثل سوى جزء واحد من اشكال التفاعل، ولهذا السبب فقط يمكن تطبيقها بشكل عام) [١٤، ص ٥٢]. ان

المقارنة بين وجهات نظر انجلز واينشتاين توضح ان الأخير قد قدم على المستوى العام، تفسيراً مادياً للرياضيات. حيث رأى ان فرضياتها هي في التحليل النهائي مشروطة بالعلاقات المادية الحقيقية بين مواضيع العالم.

ولكن هل نستطيع ان نوفق بين آراء اينشتاين في الرياضيات التي اوضحناها في بداية هذا الجزء وبين ما ذكرناه الآن؟ الا يوجد تناقض بينهما؟ نحن نعتقد ان لا وجود لأي تناقض، لأن اينشتاين تحدث في الحالة الثانية عن اصل الرياضيات وارتباطها بالواقع، وفي الحالة الأولى عن مواضيع الرياضيات.

ان الرياضيات كما نعرفها، هي علم للأشكال الفراغية وعلاقات الكم. ومواضيع الرياضيات تجريدية ونظرية، خالية من المحتوى برغم انها تعكس العالم الخارجي. وهذه هي سمة الرياضيات التي ركز عليها اينشتاين عندما قال ان فرضياتها تستند على مواضيع خيالنا اكثر من مواضيع الواقع. ويعني بمواضيع خيالنا التجريد والتنظير المستنبطين من العالم الواقعي من خلال وعينا.

٦ - العالم قابل للإدراك :

لقد رأينا ان اينشتاين كان لصيقاً، عموماً، بمواقف المادية بخصوص المسألة الأساسية في الفلسفة. ولم يكن يشك في ان الطبيعة قد وجدت قبل الانسان وهكذا لا يجوز اعتبارها متوقفة على الادراك الحسي والوعي. ولم يكن متردداً ايضاً فيما يتعلق باصل المفاهيم العلمية، والمقولات، والقوانين العلمية، والفرضيات الرياضية. الخ. فهو لم يفصلها عن الواقع المادي.

ولكن ماذا كان موقفه من القضايا الأخرى للمسألة الأساسية في الفلسفة؟ كما وضع انجلز هذه المسألة (هل ان فكرنا قادر على ادراك العالم الواقعي؟ هل نستطيع من خلال افكارنا وملاحظاتنا عن العالم الواقعي صياغة انعكاس صحيح عن الواقع؟) [١٥، ص ٣٤٦].

لقد اولى اينشتاين اهتماماً كبيراً لموضوعة القابلية على ادراك العالم

الخارجي ، وآمن بإمكانية العقل البشري في ادراك العالم : (ان اسس جميع الاعمال العلمية هي الايمان بان العالم هو عبارة عن كيان منتظم وشامل [١٦ ، ص ٩٨] . ان تدرك جوهر العالم يعني ان تعكسه في مفاهيم ثم تقارنها مع الواقع . (في الحديث هنا عن (امكانية الادراك) - كتب اينشتاين - فان التعبير قد استخدم بمعناه المتواضع . وهو يتضمن : انتاج نظام من نوع معين من خلال الانطباعات الحسية ، وينشأ هذا النظام من استحداث مفاهيم عامة ، وعلاقات بين هذه المفاهيم ، وبواسطة علاقات محددة من نوع معين بين المفاهيم والتجربة الحسية . ويهذا المعنى يكون عالم تجاربنا الحسية قابلاً للادراك) [١ ، ص ٢٩٢] .

ان تفاؤل اينشتاين وايمانه في امكانية ادراك العالم نتج عن ايمانه العميق بوجود سلسلة القانون المحكوم بحالة السببية المشروطة في الطبيعة . وفي معالجته لمسألة الادراك انطلق اينشتاين من اعادة ادراك العالم الخارجي كموضوع للادراك وليس من الادراكات الحسية ، كما اتهم سابقاً .

لقد قلنا سابقاً ان نتائج الاحساس ، بالنسبة لاينشتاين ، هي انعكاس العالم الخارجي . وقد اشار إلى الادراكات الحسية كموضوع للمعرفة بروح التقاليد المادية وليس بتعبير بريكلي او ماخ : فمن وراء الادراكات الحسية يميز اينشتاين العالم الخارجي . ان المعرفة التي تستند على النتائج التطبيقية هي بالنسبة لهيوم غير واقعية . وبالضد من ذلك اصر اينشتاين على ان نتائج الاحساس كانت مصدر معرفتنا . فكتب : (ان المادة الأولية الحسية «هي» المصدر الوحيد لمعرفةنا) (٢ ، ص ٢٨٥) . واكد على ان المادة (الأولية) غير المعالجة للعالم الخارجي «يمكن ان تؤدي بنا إلى الاعتقاد والتوقع ولكن ليس إلى المعرفة وتبقى عاجزة عن فهم العلاقات الثابتة للقانون» [٢ ص ٢٨٥] . وهكذا فإن المعرفة تعتمد على تشكيل المفاهيم العلمية واكتشاف قوانين الطبيعة التي يمكن ان تتوصل لها من خلال العمل العقلاني على نتائج الاحساس .

كما أن رفض اينشتاين للأردية المتمثلة في شخص كانظ ، الذي اعتبر ان

جوهر مواضيع العالم الخارجي هو من حيث المبدأ غير قابل للادراك . واستناداً إلى كانط، فإن الظواهر لا تعكس جوهر الأشياء ولا ترتبط بها . في حين آمن اينشتاين بإمكانية تمييز ومعرفة جوهر المواضيع المادية .

وكثيراً ما عرج اينشتاين على مسألة جوهر النظرية العلمية . ونحن نعرف ان بعضاً من معاصريه البارزين يؤمنون بقوانين الطبيعة على انها احكام اعتبارية . وفي رأيهم ، ان هذه القوانين ليست بالضرورة انعكاسات للعمليات الحقيقية للعالم الموضوعي ، ولكنها أطرسائدة وملائمة للوصف العلمي . ولكن اينشتاين اعتبر النظريات العلمية مجرد مفاهيم علمية لا يمكن ان تنشأ من دون الارتباط بالواقع ، وهكذا فهي نتاج لعملية الاطلاع على العالم الخارجي المعطاة لنا من خلال الادراكات الحسية . « ان الفكرة النظرية (شدد اينشتاين) لا تنشأ بعيداً عن التجربة او بدون الاعتماد عليها ، كما لا يمكن اشتقاقها من التجربة من خلال اجراء منطقي بحت . انها تنشأ بعمل ابداعي ، فحالماتُكتسب الفكرة النظرية ، فعلى المرء ان يعالجها بشكل سريع حتى تؤدي إلى استنتاج معقول) [١٤، ص ١٤] .

وكان يعتبر ان اية فرضية نظرية هي ، من حيث المحتوى ، انعكاس لعمليات العالم الخارجي ، او كما عبر هو عن هذه الفكرة (ان كل مقدار وكل تأكيد للنظرية يرتبط بالمعنى الموضوعي «في اطار النظرية») [٤، ص ٦٨٠] . وكتب في مناسبة اخرى «ستبقى دائماً المهمة الاساسية للنظرية العلمية هي مطابقتها للحقائق» [١٨، ص ١٢] .

ان النظرية ، كما فهمها اينشتاين ، لا يمكن ان تتلائم مع نفسها او مع «فكرة سرمدية» كما يفترض بعض المثاليين ، بالنسبة له ، كانت النظرية متغيرة دائماً مع التجربة . ان النظرية العلمية في محتواها الفعلي ، لم تعتمد على وعي الانسان . واكد اينشتاين خلال حوار مع رابندارنت طاغور ، الذي كانت الحقيقة بالنسبة له فهماً رائعاً للعقل الشامل ، اكد على الفكرة التالية «اني لا استطيع ان

اثبت ان الحقيقة العلمية يجب ان تُدرك على انها حقيقة مستقلة عن البشرية، ولكني اؤمن بها بشكل راسخ. انا اؤمن على سبيل المثال، ان نظرية فيثاغورس في الهندسة تؤكد شيئاً قريباً من الحقيقة، وبشكل مستقل عن وجود الانسان، وعلى اية حال اذا كان هناك واقع مستقل عن الانسان، فان هناك حقيقة ايضاً تتناسب مع هذا الواقع، وينفس الاسلوب فان انكار الأول سينتج عنه انكار لوجود الأخيرة» [٧، ص ٤٣].

٧ - الديالكتيك العفوي:

برغم ان اينشتاين لم يمس نظرية الديالكتيك، الا ان دراسة اعماله تُظهر عدم امكانية اعتباره مفكراً وعالمًا ميتافيزيقياً «مضاداً للديالكتيك». فنظرته للعالم دياالكتيكية في جوهرها. ولن نناقش هنا عناصر الديالكتيك الموضوعي التي تنتج عن تحليل نظريتي النسبية الخاصة والعامة ولكننا سنتناول بعض وجهات نظره حول علم الفيزياء بشكل عام، اضافة إلى بعض تصريحاته حول المسائل الابستمولوجية التي تؤكد الاستنتاج بان اينشتاين كان يمتلك حدساً دياالكتيكياً عميقاً. وهي تُظهر ان ملاحظة انجلز يمكن ان تنطبق تماماً على اينشتاين «ان الناس قد فكروا طويلاً بشكل دياالكتيكي قبل ان يعرفوا ما هو الديالكتيك، مثلما تحدثوا بالنشر طويلاً قبل ان يوجد مصطلح النشر» [١٤، ص ١٧٠].

نحن نعرف ان حاجات التطبيق العملي الاجتماعي في القرنين السادس والسابع عشر، قد احدثت انقلاباً في دراسة الطبيعة. وبذات الوقت فان الطريقة الميتافيزيقية في الدراسة كانت قد اتخذت شكلها الواضح وارتفعت تدريجياً لتصبح منهجية فلسفية شاملة. وقد سيطرت النظرة الميتافيزيقية للعالم لعقود كاملة، وحسب هذه النظرة فان عناصر الطبيعة منفصلة وبالتالي فان مفاهيم هذه العناصر كانت تؤخذ دون الرجوع إلى تطورها او إلى العلاقات الشاملة بين الاشياء. وبرغم ذلك فقد ظهرت بعض الأفكار الديالكتيكية. فالعلماء الذين كانوا

يمتلكون نتائج تطبيقية كافية للوصول إلى خلاصات عامة قد تخطوا حدود وجهات النظر الميتافيزيقية .

فقد سار كل من كوبرنيكوس ، كبلر ، نيوتن وغيرهم من العلماء الطبيعيين ، خلال اكتشافاتهم العظيمة ، على الفكرة الديالكتيكية لترابط الكون ووحدة الطبيعة . ووجد علماء الطبيعة في القرنين الثامن والتاسع عشر انفسهم في وضع متناقض ، فهم من جانب يخضعون لسيطرة المنهج الميتافيزيقي ، ومن جانب آخر ، فان الواقع الذي يدرسونه يكشف لهم شيئاً فشيئاً عن الطبيعة الديالكتيكية للعالم الموضوعي . وكان اينشتاين قد وجد نفسه في وضع مشابه ، ولكن ثروة النتائج التطبيقية اكدت له ان العالم الخارجي هو وحدة مادية متكاملة كما رأى «روعة وعظمة النظام الذي يكشف عن نفسه في الطبيعة وفي عالم الفكر» [١ ، ص ٣٨] . وكان اينشتاين متأثراً ايضاً وبشكل عميق بافكار لوكرتيوس وسبينوزا . حيث كتب عن الأخير بأنه (كان واثقاً تماماً بالتبعية السببية لجميع الظواهر في وقت كان فيه النجاح المصاحب للمساعي الهادفة للوصول الى معرفة العلاقة السببية لظواهر الطبيعة لا يزال متواضعاً) [١٩ ، ص ١١] .

وكان اينشتاين متفقاً تماماً مع التصور الخاص بالتبعية السببية لظواهر الطبيعة . وشدد على ان الصلات السببية التي كانت موضوعية في الطبيعة ، قد اصبحت علاقات للعالم الخارجي . ولهذا عارض وجهات النظر الذاتية لهيوم وماخ القائلة بان التبعية السببية هي التعود على استقبال حدث ما بعد الآخر . فكتب (انه رائع حقاً ، الايمان بالسببية الفيزيائية التي لا تتوقف حتى بارادة الكائن البشري) [٨ ، ص ٥٤ - ٥٥] . ولفترة زمنية مضت سيطرت على الغرب فكرة وجود حرية ارادة في الطبيعة اللاعضوية . حيث اكدت هذه الفكرة على ان معظم العمليات الغامضة تجري في العالم المجهرى .

وكانت الخلاصة التي وُضعت في بعض الأحيان ، وهي عدم وجود السببية في العالم الخارجي بشكل عام . وكان اينشتاين ضد مفهوم الاحتمية

(Indeterminism) ، بأي شكل كان حيث يقول عن هذه الفرضية المثالية (ان هذا الهراء ليس عادياً، انه هراء كرهه . . ان الاحتمية هي مفهوم غير منطقي) [١٠] ، ص ٢٠١-٢٠٢].

ولكن اينشتاين لم يكن يمتلك صورة محددة المعالم وواضحة عن مفهوم السببية عندما بدأ في دراسة عمليات الميكانيك الكمي . ومن المعروف ان هناك تجليات مختلفة للسببية تعتمد على خواص الموضوع الخاضع للدراسة . على سبيل المثال، خلال العمليات الكبيرة او الواسعة النطاق، يُعبر عن السببية بشكل قوانين غير غامضة او دينامييه، وفي العالم المجهرى من خلال قوانين استاتيكية . وكان لاينشتاين رأي متشكك في التصور الاستاتيكي للعلاقة السببية . وكتب ان «نظرية الكم الحديثة تحمل ضعفاً في مفهوم السببية» [٢٠] ، ص ٧٥٨].

ولكن على الضد من الفلاسفة البرجوازيين الذين فسروا الطبيعة الاستاتيكية لقوانين العالم المجهرى على انها تعبير عن نهاية مفهوم العلاقة السببية في الطبيعة والمجتمع، وانها اثبات لـ (الارادة الحرة) للاكترون . . الخ، فقد شدد اينشتاين على ان الانحراف عن المفهوم السابق للسببية «لا يفتح باباً خلفياً للدفاع عن الارادة الحرة»، وهكذا فلم يكن هناك «أي مكان لـ (الارادة الحرة) ضمن اطار التفكير العلمي، ولم يوجد أي منفذ لما يسمى بـ «مذهب الحيوية»» [٢٠] ، ص ٧٥٨].

ان اطار اينشتاين الديالكتيكي عن العقل قد اوصله إلى خلاصة مفادها، ان العلماء وقبل معالجة العمليات في العالم المجهرى، يتعاملون مع مبدأ السببية في شكله البدائي . وفي محاولة لاسباغ طابع مطلق على هذه الفرضية، فقد قاموا بتوسيعها كي تشمل عمليات العالم المجهرى ايضاً وحقيقة الأمران التصور الحالي للسببية محصور بسمه تشكل جزءاً من حدود المفهوم الذي لم يُعط له إلى الآن تفسيراً واضحاً. «أنا أو من الآن» كتب اينشتاين «ان الاحداث في الطبيعة يسيطر

عليها قانون صارم ودقيق اكثر مما نعرفه اليوم، عندما نتحدث عن حدث ما يكون سبباً لحدث آخر» [١٠، ص ٢٠٣].

وهكذا، لا توجد عمليات في العالم، حسب رأي اينشتاين، يمكن اعتبارها عمليات عشوائية او منفصلة. ان الكون خاضع لسيطرة نظام صارم او قانون، وكل شيء فيه مترابط مع الآخر ومشروط بشكل متبادل.

ان هيمنة الميتافيزيقيا قد تركت اثرها ايضاً على تفسير ديناميكية المفاهيم العلمية، والنظريات، واسس العلم، فطالما ان مواضع العالم الخارجي والعالم ككل تبدو ثابتة من ناحية الزمن، فان انعكاساتها في المفاهيم العلمية والنظريات كانت تُقبل ايضاً على اساس انها مُعطاة مرة وإلى الابد، وغير قابلة للتغير.

ولن نتحدث هنا عن مآثرة مؤسسي المادية الديالكتيكية في دحض النظرة الميتافيزيقية للعالم. ولكن دعونا نرى كيف فسر اينشتاين هذه القضية وكيف سعى لحلها. فقد رأى بشكل عام عجز المنهج الميتافيزيقي، وانتقد اولئك المؤمنين بسرمدية المفاهيم العلمية. فاذا كنا نريد للمفاهيم العلمية ان تُسهل عملية التطور العلمي، فان ذلك يعني ضرورة تنقيحها وتوسيعها بين آونة واخرى كي تتلاءم مع التطورات الحديثة في عملية ادراك العالم الخارجي. كتب اينشتاين «ان الوضع سيتغير عندما تكون هناك ضرورة لاستبدال احد المفاهيم المألوفة بمفهوم آخر اكثر وضوحاً ودقة بما يتلاءم وحاجات التطور في نظام أية مسألة. وعندئذ سيقوم اولئك الذين استخدموا نفس المفهوم بصيغته الفضفاضة بحملة مقاومة كبيرة شاكين من الخطر الذي يتهدد الأشياء المقدسة. وتختلط مع هذا النحيب اصوات اولئك الفلاسفة المعتقدين باستحالة العمل بدون هذا المفهوم لأنهم قد وضعوه في خزانتهم لـ (المطلقات) و (البدهييات). الخ وباختصار، بسبب رصها في مقولة فانهم ينادون بها كمبدأ ثابت لا يتغير» [٥، ص ١٠٢].

فطالما ان المفاهيم العلمية التي تشكل الاساس المنطقي لقوانين الطبيعة ليست استاتيكية ولا مطلقة، فلا يمكن اعتبار القوانين مطلقة ايضاً، حسب رأي

اينشتاين «ان القانون لا يمكن ان يكون محددًا لسبب واحد وهو ان التصورات التي صيغ القانون على اساسها تتطور ويمكن ان تثبت عدم صلاحيتها في المستقبل» [١٦، ص ١٠٠].

ان فكرة تقديم الفيزياء عموماً ومسائلتها الاساسية باعتبارها علماً ثابتاً لا يتغير لم تكن مقبولة من قبل اينشتاين ايضاً. وبالضد من بعض العلماء، فقد رأى الفيزياء كعلم دينامي وتاريخي. فكتب في هذا السياق «ان ملاحظتنا للواقع الفيزيائي لا يمكن ان تكون نهائية ابداً. يجب ان نكون مستعدين دائماً لتغيير هذه الملاحظات - او ما نسميها بالقاعدة البديهية للفيزياء - في سبيل الوصول إلى الحقائق بأفضل الطرق المنطقية. والواقع ان نظرة سريعة على تطور الفيزياء تظهر لنا حدوث تغيرات عديدة وواسعة مع مرور الزمن» [١، ص ٢٦٦].

ان موقف العديد من الفيزيائيين ازاء ميكانيك نيوتن معروف تماماً. حيث كان هذا الميكانيك، حتى القرن العشرين يُقدم على انه علم ثابت لا يتغير، قادر على ان يوفر اجابات على جميع الاسئلة حول بنية المادة اللاعضوية، بل ان البعض اعتقد انه مفتاح لادراك المادة العضوية ايضاً. ولكن اينشتاين ادرك ان ميكانيك نيوتن هو في الجوهر علم نسبي. وفي مقالاته بمناسبة الذكرى المثوية لميلاد تومسون - احد الفيزيائيين البارزين واحد المدافعين اللامعين عن ميكانيك نيوتن - قدر اينشتاين مساهمات هذا العالم في تطور الفيزياء، لكنه تحدث في نفس الوقت «بشيء من التراجيديا» عن نشاطه العلمي. ويكمن هذا العنصر التراجيدي حسب رأيه في حقيقة ان تومسون آمن بشكل اعمى حتى وفاته بالسمة المطلقة لميكانيك نيوتن. «ان تومسون الذي اعتقد حتى يوم وفاته بسلامة اساس المعرفة الفيزيائية، سيصاب بصدمة لو استطاع ان يرى ما وصل اليه العلم اليوم» [٢١، ص ٦٠١].

ان استنتاج نسبية المعرفة الفيزيائية لم يجبر اينشتاين على نبذ العالم الخارجي والحقيقة الموضوعية، كما كان الحال مع عدد من الفيزيائيين الذين يُسمون بالمثاليين

(الفيزيائيين). لقد اعتقد لينين بان السبب في توجه بعض الفيزيائيين الى المثالية عن طريق النسبية هو نبذهم للديالكتيك: «ان السبب الآخر الذي اعطى دفعة للمثالية «الفيزيائية»، هو مبدأ النسبية، نسبية معارفنا، المبدأ الذي فرض نفسه بالقوة على الفيزيائيين في مرحلة تحطيم النظريات القديمة، والذي يؤدي لا محالة - في حال الجهل بالديالكتيك - إلى المثالية» [٢٢، ص ٣٠٨].

ان اينشتاين لم ينبذ ميكانيك نيوتن، بل وضعه في موضعه المناسب ضمن هيكل المعرفة الفيزيائية، ايماناً منه بان الاستنتاجات النظرية للميكانيك ملائمة فقط لجزء محدد من الظواهر. فكتب «علينا أولاً ان نرى بوضوح إلى أي مدى استطاع الميكانيك الكلاسيكي ان يبرهن انه صالح لأن يكون اساساً لكل الفيزياء» [١، ص ٣٠١]. وعلى العكس من الميتافيزيقيين، اكد اينشتاين على التواصل بين النظريات الفيزيائية. وفيما يتعلق بتأثير ميكانيك نيوتن على عدد من مسائل الفيزياء النظرية كتب يقول: «ان كل التطورات في افكارنا حول عمليات الطبيعة... يجب ان تعتبر تطوراً عضوياً لأفكار نيوتن» [١، ص ٢٦١].

لقد ادرك اينشتاين ان جميع معارفنا كانت حقيقة نسبية، حيث شكلت جميعها مراحل معينة لبلوغ المعرفة الكاملة، وبرغم ان اعماله لم تتضمن دراسة العلاقة المتبادلة بين الحقيقة المطلقة والنسبية، يمكن ان نرى انه عبر في العديد من المناسبات، عن افكار مشابهة بتعبير دياالكتيكي عفوي. فعلى سبيل المثال، اكد ان مفاهيم نيوتن وفرضياته الاساسية كانت مجرد اقتراب من الحقيقة. وحول امكانية رسم صورة فيزيائية كاملة للعالم، اكد، ان المرء يستطيع نظرياً ان يضع حلاً لمثل هذه المهمة، لكنه لن يتمكن عملياً من تحقيق ذلك. [١٠، ص ١٢]. وفي (الفيزياء والواقع) الذي تناول فيه ديناميكية التفكير العلمي، طرح نفس الاستنتاج موضحاً ان تراكم المعرفة يؤدي إلى معرفة متكاملة اكثر فأكثر [١، ص ٢٩٣ - ٣٢٣].

وتظهر نوعية التفكير الديالكتيكي لأينشتاين ، كما رأينا سابقاً ، في تفسيره للعلاقة المتبادلة بين النظري والتطبيقي . فهو لم يلتزم - خلافاً للعلماء الميتافيزيقيين بأي من هذين الجانبين ، ولم يفصل السببية المنطقية في الإدراك عن العالم الموضوعي : « . . . التفكير لوحده لا يمكن ان يؤدي ابدأ إلى معرفة المواضيع الخارجية . ان الإدراك الحسي هو بداية الأبحاث ، ويستطيع التفكير النظري ان يصل إلى الحقيقة بعلاقته مع اجمالي التجارب » [٢٠ ، ص ٧٥٧ - ٧٥٨] . وفي مناسبة اخرى : « كل المعرفة عن الواقع تبدأ من الممارسة وتنتهي فيها »* [١ ، ص ٢٧١] . وفي سجاله مع أولئك الذين نسبوا إلى غاليليو انكاره المنهج الاستدلالي . (Deductive method) كتب اينشتاين : « لقد بات واضحاً أن غاليليو قد اصبح اباً للعلم المعاصر من خلال استبداله المنهج الاستدلالي ، التأملي بالمنهج التطبيقي ، التجريبي . لكنني اعتقد ان هذا التفسير لم ينل قدرأ كافياً من التمعن والتفحص . فلا وجود لطريقة تطبيقية بدون مفاهيم تأملية (Speculative) وانظمة ، ولا وجود لتفكير تأملي لا تُظهر مفاهيمه المادة التطبيقية التي انبثق منها . انه خطأ فادح وضع تضاد حاد بين الموقف التطبيقي والاستدلالي . وهذا شيء غريب عن غاليليو » [٢٤ ، ص ١٧] .

انها حقيقة ان الاختلاف في العلم يُسهل عملية التعمق في جوهر الظواهر المنفصلة في العالم . ولكن في ظل غياب معرف كافية بالديالكتيك فان هذه العملية يمكن ان تولد عزلاً ذهنياً فكرياً لهذه الظواهر .

ولقد احس اينشتاين بهذا الخطر الميتافيزيقي . ان الاختلاف قد نتج مع خطر فقدان الخيط الواصل بين كتلة الظواهر المنفصلة ، الخيط الضروري جداً

* - لقد عبر لينين عن هذه الفكرة بالصيغة التالية : من المشاهدة الحية إلى التفكير المجرد ومنه إلى الممارسة - هذا هو الطريق الديالكتيكي لادراك الحقيقة ، لادراك الواقع الموضوعي . [٢٣ ، ص ١٧١] .

للوصول إلى ادراك اعمق للشيء المعطى . وقد اعطى اينشتاين صورة واضحة تماماً لهذه الفكرة من خلال تطور علم الطب : (في الطب ايضاً ، اصبح التخصص شيئاً لا يمكن الاستغناء عنه مع زيادة المعارف ، ولكن في هذه الحالة فان للتخصص حدوده الطبيعية ، اذا ما خرج جزء ما من الجسم البشري عن انسجامه مع الجسم ككل ستكون الحاجة ماسة إلى شخص ذي معرفة عميقة بالنظام المعقد لارجاعه إلى الوضع الصحيح ، وفي الحالة المعقدة ، ستكون الحاجة فقط إلى شخص متخصص يمتلك فهماً كاملاً للحالات المضطربة . ولهذا السبب فان المعرفة الشاملة للعلاقات السببية العامة هي مسألة لا غنى عنها بالنسبة للطبيب) [٢٠ ، ص ٧٥٥].

ان تحليل آراء اينشتاين حول المسائل الابستمولوجية لعلم الطبيعة يوضح تماماً السمة الديالكتيكية في تفكيره .

* * *

ان دراسة نظرة اينشتاين للعالم تبرر الاستنتاج بانها لم تكن متطابقة مع اية نظرة فلسفية مثالية . وان محاولات ربط افكاره بالبريكلية والكانطية والوضعية الجديدة ، وبمذهب الأنانة . . الخ لا يمكن الدفاع عنها وتبريرها . فهو لم يتفق مع أي من الآراء الاساسية لهذه المذاهب المثالية . وفي موقفه ازاء العالم الخارجي كان اينشتاين مادياً عفويّاً وديالكتيكياً . ويظهر هذا الاستنتاج ايضاً من طبيعة اكتشافاته الفيزيائية . ان النظرية النسبية يمكن اعتبار بحق ، واحدة من أهم اكتشافات علم الطبيعة مطابقة مع المادية الديالكتيكية . فاكتشافات اينشتاين الفيزيائية ادت إلى تنقيح جذري للمفاهيم الميتافيزيقية القديمة حول الزمان والمكان . فعلى سبيل المثال ، اثبتت النظرية النسبية الخاصة ان التغير في سرعة الشيء المتحرك يولد تغيراً في سماته الزمكانية ، وكشفت عن الوحدة الديالكتيكية لصفات المادة .

كما طورت النظرية النسبية العامة الآراء حول المكان والزمان . فاكشاف حقيقة ان كتلة الاجسام تقرر البنية الهندسية للزمان والمكان ، قد اشار إلى وجود رابطة عضوية عميقة بين المكان والزمان والمادة .
ان الفكرة المادية الديالكتيكية حول المكان والزمان باعتبارهما شكلين لوجود المادة قد تعززت وتطورت من خلال علم الطبيعة بصورة كبيرة .

اينشتاين والنزعة الاجرائية لـ (بريجمان)

يرتدي التحليل النقدي لفلسفة النزعة الاجرائية أهمية بالغة في سبيل الوصول إلى فهم اعمق لآراء اينشتاين الفلسفية، وفي المقام الأول منها، تصوره عن طريقة الادراك العلمي. وقد قام بوضع هذه الفلسفة، العالم الامريكى البارز ب. و. بريجمان (١٨٨٢ - ١٩٦١ م)، في فيزياء الضغط العالي، والحائز على جائزة نوبل عن دراساته في هذا الميدان. فقد سعى بريجمان ومن مواقف النزعة الاجرائية، إلى نقد محتوى الفيزياء المعاصرة، وخصوصا النظرية النسبية لأينشتاين. وفي عام ١٩٤٩ اشترك أينشتاين وبريجمان في مناظرة نشرت في مقالتيين ضمن كتاب بعنوان «البرت اينشتاين: الفيلسوف - العالم» [١، ص - ص ٣٢٣ - ٣٥٤، ص - ص ٦٦٣ - ٦٨٨].

كانت المسألة الأساسية التي عاجلتها النزعة الاجرائية، هي تعريف محتوى المفاهيم الفيزيائية. فالاختلاف بين الفيزياء والرياضيات يكمن في ان مقادير معادلات النظرية الفيزيائية ترتبط بنتائج المراقبة والتجارب. كما ان الفيزياء تحتاج إلى تفسير تجريبي لشكليتها (Formalism). وعادة ما يتم الافتراض بأن

خواص المواضيع الفيزيائية الحقيقية ، والتي نشأت من خلال التجارب الفيزيائية ، تتطابق مع المفاهيم الفيزيائية . وان هذه الخواص هي التي تحدد محتوى المفاهيم الفيزيائية .

ولكن بريجمان لم يكتفِ بهذا الحل . فمحتوى المفاهيم الفيزيائية ، حسب رأيه ، لا يتجدد بواسطة خواص الاشياء ، وانما بالاجراءات التي تقوم بها على تلك المفاهيم ، فكتب «ان الفكرة الاساسية التي تقف وراء التحليل الاجرائي ، هي فكرة بسيطة للغاية . مجرد اننا لا نعرف معنى المفهوم الا اذا تمكنا من تعيين الاجراءات التي استخدمناها نحن او غيرنا في تطبيق المفهوم على أية حالات ملموسة» [٢ ، ص ٧] .

واعتقد بريجمان ان النظرية النسبية الخاصة تتلائم تماماً مع مبادئ النزعة الاجرائية ، بل انها واحدة من الاثباتات الهامة لهذه المبادئ . فالمكسب الرئيسي لنظرية اينشتاين كان استناداً إلى بريجمان كما يلي : «في المقام الأول ، ادرك اينشتاين ان البحث عن معنى المصطلح يجب ان يتم في الاجراءات المستخدمة في تطبيق المصطلح . فاذا كان المصطلح قابلاً للتطبيق على حالات فيزيائية ملموسة ، مثل (الطول) او (التزامن) . فان ذلك يعني ضرورة البحث عن المعنى في الاجراءات التي من خلالها يتم تحديد طول المواضيع الفيزيائية الملموسة ، او في الاجراءات التي يتم من خلالها تحديد ما اذا كان حدثان فيزيائيان ملموسان ، متزامنين ام لا » [ص ٣٣٥] .

لقد كانت النزعة الاجرائية موجهة بشكل مباشر ضد التفسير التأملي للمعرفة الفيزيائية ، الذي استخف بدور القياسات . ولكن النزعة الاجرائية نفسها ، لم تقدم تقييماً صحيحاً لدور القياسات في الفيزياء ، التي تضمنتها النظرية النسبية الخاصة . فمن وجهة النظر الاجرائية ، لم تقم النظرية النسبية الخاصة بوصف العالم الفيزيائي على الاطلاق ، بل مجرد اجراءات القياس واجهزة القراءات . فعلى سبيل المثال ، يمتلك الطول في النظرية النسبية اساساً اجرائياً ، اكثر من

امتلاكه لأساس موضوعي . ويشرح بريجمان ذلك بقوله : « . . . ان الطريق الصحيح الذي نميز به الطول في الحركة ، سيكون مهمة التعريف لطول الموضوع المتحرك » [١ ، ص ٣٣٦] .

وتبدو النزعة الاجرائية غير مبررة من وجهة نظر المبادئ المادية التي يتبعها عفوياً اي فيزيائي . فالقياسات خصوصاً ، واستناداً إلى وجهة النظر هذه ، هي مجرد اظهارة لتأثيرات نسبية - ليست من استحداثهم . انها وسائل ادراك خواص العالم الموضوعي ، وليست من استحداثهم .

وثمة نقطة جوهرية اخرى ، وهي ان تطور النظرية النسبية الخاصة قد اوجد تفسيراً يقول بعدم وجود مكان لا للمراقبين فحسب ، وانما للأجهزة واجراءات القياس ايضاً ، فالتعبير الذي تقبل به النزعة الاجرائية - ونحن نشير إلى التفسير المعبر عنه في فضاء مينكوفسكي ، تكون الاختلافات في طول عصا القياس ، وكذلك الفواصل الزمنية في مختلف اطراف الاشارة ، غير مرتبطة مع اي اجراء للقياس ، وتبدو كنتائج بسيطة لحقيقة ان للفواصل الزماني والمكاني الواحد اسقاطات مختلفة في الطول ضمن انظمة الاحداثيات المختلفة . لقد رُفض هذا التفسير الذي يناقض النزعة الاجرائية ، على نحو مميز من قبل اتباعها باعتباره غير مبرر اجرائياً ، ولكن بحقيقة الأمر كان لهذا التفسير أهمية عظيمة في تطوير النظرية النسبية الخاصة والانتقال منها إلى النظرية النسبية العامة .

ان المنهجية الاجرائية لا تعرض سمات الذاتية فحسب ، وانما سمات التجريبية ايضاً . اذ ان الحدود القياسية التي فرضت على المفاهيم الفيزيائية المستخدمة هي نتيجة لهذه المنهجية . فاذا لم تكن في موقف يُظهر الاجراءات التي يجري فيها استخدام المفهوم ، فان الاخير سيكون فارغاً حسب الرأي الاجرائي ، ويجب ابعاده عن الفيزياء . وليس من الصعب تخيل نتائج تطبيق هذه المنهجية على النظرية النسبية العامة . فهذه النظرية بشكليتها الرياضية المجردة تتناقض مع

التصور الاجرائي عن المعرفة العلمية، وذلك لأن العديد من مفاهيمها لا ترتبط مباشرة مع الاجراءات الفيزيائية.

ومع بداية تحليله النقدي للنظرية النسبية العامة، وضع بريجمان ملاحظة أكد فيها بأنه لن ينتقد الأوجه الفيزيائية - الرياضية لهذه النظرية، وان اهتمامه الأساسي منصب على أسسها الفلسفية: «هنالك وجهان عامان للنظرية النسبية العامة يمكن ادراكهما:

أولاً؛ ثمة بناء رياضي لنظام المعادلات والقواعد، التي يتم بواسطتها تصحيح رموز المعادلات، ارتباطاً بنتائج الاجراءات الفيزيائية.

ثانياً؛ ثمة موقف للعقل، او ما يمكن ان اسميه أنا بالفلسفة التي توصلنا إلى الحجج والبراهين التي تشتق منها المعادلات، والى تقبل ان هذه المعادلات المشتقة تمتلك شرعية فيزيائية. ونحن مهتمون هنا بفلسفة اينشتاين اكثر من اهتمامنا بالمعادلات التي استنبطها من خلال فلسفته» [١، ص ٣٤٧].

ولكن، اتضح فيما بعد ان هذه الملاحظة لم تكن سوى حبر على الورق. ففلسفة اينشتاين ترتبط بصورة وثيقة مع معادلاته. ولهذا السبب اضطرب بريجمان لا لمناقشة المسلمات الفلسفية فحسب، وانما المحتوى الفيزيائي - الرياضي للنظرية النسبية العامة ايضاً. ونتج عن ذلك ان العديد من المفاهيم الأساسية لهذه النظرية لم تعد مقبولة من وجهة النظر الاجرائية، وبالأخص منها، مفهوم الحدث. فأي حدث يعني نقطة تتعين بثلاثة احداثيات مكانية واحداثي زمني واحد يكون خالياً من أي معنى فيزيائي، وفقاً لبريجمان. فالاحداثيات هي دائماً احداثيات لموضوع فيزيائي حقيقي. وبعيداً عن الأساس الفيزيائي فاننا لن نتمكن من تحديد أي شيء، فالفضاء يمكن ان يتعين بالاحداثيات. وهكذا فان مفهوم الحدث باعتباره نقطة في فراغ ذي اربعة اتجاهات زمكانية، سيتحول إلى شيء زائف على المستوى الفيزيائي.

وبنفس الشدة عارض بريجمان مفهوم النظام الاحداثي الكيفي. فهو خالٍ

ايضاً من اي معنى اجرائي . فالنظام الاحداثي يصبح ذا معنى فيزيائي فقط ، عندما يرتبط بالمراقب وادواته . وكان لمفهوم التوحد النسبي (Covariance) للقوانين المطبقة من قبل أينشتاين في النظرية النسبية العامة نهاية مشابهة : فقد اعترض عليه بريجمان باعتباره خالياً من المعنى الاجرائي .

بيد اننا نعرف ان مفاهيم الحدث ، والنظام الاجرائي الكيفي ، والتوحد النسبي (Covariance) هي ملاحظات اساسية للنظرية النسبية العامة . وهكذا فان التحلي عن هذه المفاهيم يجعل من النظرية النسبية العامة مجرد لغو فارغ . وانهى بريجمان مقالته بالكلمات التالية : «من خلال ايمانه بإمكانية الابتعاد عن اي نظام احداثي خاص ، وايمانه بالنتائج المثمرة لعلمه ، وبمعالجته للحدث باعتباره اصلياً وغير محلاً ، فقد ادخل (أينشتاين) إلى النظرية النسبية العامة وبصورة دقيقة غير قابلة للانتقاد ، وجهة النظر قبل الاينشتاينية التي عرضها لنا بكل ثقة في نظريته الخاصة ، والتي تُخفي امكانية الدمار» (١ ، ص ٣٥٤) .

وكان اينشتاين قد قرأ ما كتبه بريجمان ضمن مسودات الكتاب (البرت اينشتاين : الفيلسوف ، العالم) ، فكتب رداً وضعه في نهاية المقالات بعنوان (ملاحظات حول المقالات . . .) ولم يتضمن هذا الرد نقداً تفصيلياً لآراء بريجمان ، لكنه نجح في التعبير بصورة موجزة وبليغة عن الاختلاف بين تفسيره للنظرية النسبية وتفسير النزعة الاجرائية لها : «من اجل ان نتمكن من دراسة نظام منطقي مثل النظرية الفيزيائية ، فانه ليس من الضروري المطالبة بان تُفسر بشكل مستقل جميع تأكيداتها و(تُختبر) اجرائياً . وفي الواقع ، لم ولن تستطيع اية نظرية تحقيق ذلك . ومن اجل ان نتمكن من دراسة نظرية مثل النظرية الفيزيائية ، يصبح الشيء الضروري ، هو تضمين هذه الدراسة الاختبار التجريبي لتأكيدات النظرية بشكل عام» . [١ ، ص ٦٧٩] .

ان هذه الاقتباسات من اعمال اينشتاين وبريجمان تظهر بوضوح تام الاختلاف بين الطرائق الابداعية والآراء حول طبيعة المعرفة الفيزيائية لهذين

العالمين . فقد امن اينشتاين بما يسمى بالمنهج الفرضي - الاستنباطي للادراك ، باعتباره اكثر المناهج ملاءمة لأهداف الفيزياء . ووفقاً لهذا المنهج او المخطط فان المبادئ النظرية هي التي تُصاغ أولاً ثم تُستخرج منها النتائج التجريبية بشكل استنباطي ، وان اساس المبادئ النظرية هو (الابتكارات الحرة) لعقل العالم .

وعبر اينشتاين عن فكرة الابتكار الحر للمبادئ النظرية في العديد من أعماله . فكتب في مقالته المعنونة (بصدد منهج الفيزياء النظرية) مايلي : «ان النظام الكامل للفيزياء النظرية يقوم على المفاهيم والقوانين الاساسية التي يفترض ان تكون شرعية بالنسبة لكل من المفاهيم والخلاصات التي يتم التوصل اليها من خلال الاستنباط المنطقي . وهذه الخلاصات هي التي يجب ان ترتبط بتجاربنا المنفصلة . . . ان بنية النظام هي عمل العقل . وعلى المحتوى التجريبي لهذا النظام وعلاقاته المتبادلة ان تجد تعبيراً لها في خلاصات النظرية . وتكمن القيمة العظمى وشرعية كل النظام في امكانية وجود مثل هذا التعبير ، وخصوصاً بالنسبة للمفاهيم والقوانين الاساسية التي يحتويها . وبعيداً عن ذلك ، فان المفاهيم والقوانين الاساسية هي ابتكارات حرة للفكر الانساني ، لا يمكن ان تثبت اهليتها ، لا بطبيعة ذلك الفكر ، ولا بأي اسلوب بديهي آخر» [٣، ص ٢٧٢] .

ولكن اينشتاين لم يفسر مصطلح (الحرية) بلغة الاعتباطية الذاتية لصياغة المبادئ النظرية . فقد وضح ان الحرية في هذه الحالة لها معنى مميز ونوعي : «ان حرية الارادة هي من نوع خاص عموماً ، فهي لا تشبه ابداً حرية كاتب الرواية . بل انها شبيهة بالانسان المشغول بحل لغز الكلمات المتقاطعة . اذ يقوم في الواقع بافتراض كلمة ما ، ولكن ثمة دائماً كلمة واحدة فقط هي التي يمكن ان تحل اللغز في جميع اجزائه» [٣، ص ٢٩٤ - ٢٩٥] .

لقد فسر اينشتاين الحرية بتعبير ال (ضد الاستقرائية) ، بانه امكانية صياغة المبادئ النظرية التي لا تُستخرج مباشرة من التجربة ، على أرضية منطقية بحتة ، تلك هي الحرية التي ساعدت على ظهور النسبية العامة . ومن المفيد التشديد

هنا، بان هذه النظرية لم تأت من حقيقة تجريبية واحدة - تساوي مقادير الجاذبية الأرضية والقصور الذاتي، وهذه الحقيقة لم تؤد للتوصل إلى النظرية النسبية العامة، لكنها ترتبط بها فقط تحت ظرف له تفسير محدد. فاذا غير هذا التفسير بطريقة معينة، فان هذه الحقيقة يمكن ان تعتبر بمثابة أساس تجريبي للنظرية المنافسة، اكثر من اعتبارها اساساً للنظرية النسبية العامة. ومثال على ذلك نظرية الكمية - العددية للجاذبية. وحتى لو اعطي لتساوي مقادير الجاذبية والقصور الذاتي تفسير يؤدي إلى النظرية النسبية العامة، فلا يمكن اعتبار ذلك اساساً هاماً بالنسبة للنظرية. ولا يمكن استخراج الخلاصة القائلة بأن الجذب هو هندسي بطبيعته، كما لا يمكن استخراج معادلات التوحيد النسبي لمجال الجاذبية من هذه الحقيقة. فلاستخراج هذه الخلاصات، ثمة حاجة إلى المزيد من الفرضيات ذات الطبيعة الرياضية. وبشكل خاص، فان استنباط معادلات الجاذبية يتطلب التسليم بالشروط السابقة: المكان - الزمان ذو الابعاد الأربعة، وتناظر الكمية - الممتدة المترية، وثبات المعادلات في ظل مجموعات التحول المستمرة.

ان المنهج الفرضي - الاستنباطي ومبدأ الحرية بانشاء المبادئ النظرية الاساسية لم يكونا خاصة الفيزياء النسبية فقط، حسب رأي اينشتاين، فالفيزياء اجمالاً تتبع هذا المنهج منذ نشأتها، وهو ايضاً ميزة التطور في التفكير الفيزيائي المعاصر.

ان المنهج الفرضي - الاستنباطي في ادب اينشتاين هو مبدأ مرفوض من قبل النزعة الاجرائية. فهذا المنهج يفترض امكانية التجسيد التجريبي الشامل للنظرية الفيزيائية عموماً. ولكن استناداً إلى بريجمان، فان المهمة تكمن في اثبات التجريبي لعناصر النظرية - أي دراسة المفاهيم والمبادئ بشكل منفصل. ان مثل هذا النوع من التحليل كما يعتقد بريجمان هو الوحيد القادر على ابراز معنى التجسيد التجريبي للنظرية.

ان رغبة بريجمان في تحديد مستقبل كل افتراض للنظرية الفيزيائية من خلال فصل الاثبات التجريبي ، هي رغبة غير مبررة . فالفيزياء تضم دائماً ، بالإضافة إلى المفاهيم التي تكون عرضة للتفسير التجريبي المباشر، صروحاً نظرياً مجردة غير مرتبطة بشكل مباشر مع التجربة . وبتابع منطق النزعة الاجرائية ، يكون من الواجب عزلها عن النظرية الفيزيائية . ولكن الأخيرة لا يمكن ان توجد وتؤدي عملها دون هذه الصروح ، وهكذا فان هذا العزل مستحيل تماماً .

وفي محاولة لايجاد مخرج من هذا المأزق المنطقي ، اقترح بريجمان تفسيراً موسعاً للاجراءات المسؤولة عن محتوى النظرية الفيزيائية ، من خلال السماح لا بالاجراءات الادواتية فقط ، وانما بالذهنية منها أيضاً : «اعتقد ان هذه وجهة نظر خاطئة بشكل واضح ، لأن الملاحظة البسيطة تظهر ان الفيزيائيين يطبقون بشكل مفيد المفاهيم التي لا يمكن ايجاد معنى لها في الاجراءات الادواتية للمختبر . . ويمكن ان نجمع سوية كل الاجراءات اللا ادواتية ونعتبرها اجراءات (ذهنية)» [٢ ، ص ٨] . وتشمل الاجراءات الذهنية استناداً الى بريجمان ، الاجراءات الشفهية والاجراءات الكتابية .

ولكن توسيع بريجمان لمفهوم الاجراء لا يحل المسألة . فطالما لا توجد اشارة إلى حدود واضحة او معيار لتطبيق الاجراءات الذهنية ، فان بعض الصروح النظرية يمكن ان تُجاز بشكل اعتباطي (مثل وظيفة الموجة في ميكانيك الكم) في حين تُرفض الاخرى (مثل النظام الاحداثي الاعتباطي في النظرية النسبية العامة) . هذا من جانب ، ومن جانب اخر ، فانه بالرغم من القبول المعلن للاجراءات الذهنية ، يخلص بريجمان في التحليل النهائي الى ان الاجراءات الفيزيائية الحقيقية هي وحدها التي تحدد محتوى المفاهيم . وهو ما يتضح فيما يلي : «ان الاجراءات التي تُعطي معنى لمفاهيمنا الفيزيائية ، من الأفضل ان تكون اجراءات فيزيائية نجريها فعلاً» [٤ ، ص ٩] .

وتتضح تجريبية بريجمان ايضاً في موقفه السلبي تجاه التجارب الخيالية

(المشالية، غير الواقعية). فهذه التجارب حسب رأيه، تقدم عنصراً تأملياً في حل المسائل القابلة للملاحظة، الأمر الذي لا يُقبل في الفيزياء. ولهذا يتوجب اقصاء هذه التجارب من الفيزياء واستبدالها بتجارب يمكن اجراؤها واقعياً، وإعادة صياغة المسائل القابلة للملاحظة بشكل يلائم شروط الأخيرة.

وربط بريجمان التجارب الخيالية بعمل أينشتاين، وخصوصاً مع نظريته النسبية العامة. والواقع ان اينشتاين قد استخدم بشكل واسع طريقة التجارب الخيالية في صياغة النظرية النسبية العامة، ولكن ذلك لا يخص اينشتاين وحده. اذ يرجع استخدامها إلى بداية الفيزياء كعلم، فحتى القانون الأول في الميكانيك وهو قانون العطالة - القصور الذاتي، لم يكن بالمستطاع انشاؤه دون التجارب الخيالية [5، ص 8]. وفي الوقت الحاضر لا تستخدم التجارب الخيالية في الفيزياء النسبية فحسب، بل ايضاً في ميكانيك الكم وفيزياء الجسيمة الأولية. ومن الصعب تصور امكانية تطور الادراك الفيزيائي دونها.

ان التجارب الخيالية هي في حد ذاتها، لا تقدم عنصراً تأملياً في حل المسائل القابلة للملاحظة. بل على العكس، فهي تسمح بحل اكثر دقة لهذه المسائل. وعلى اساس هذه التجارب تم انشاء مفهوم (امكانية الملاحظة من حيث المبدأ).

ففي الفيزياء، يكون أي موضوع قابلاً للملاحظة، اذا كان قابلاً للقياس. ولهذا فان امكانية الملاحظة تتطابق مع امكانية القياس. ولكن في معظم الحالات يكون المهم في الأمر هو امكانية القياس من حيث المبدأ وليس امكانية القياس الحقيقية. مما يعني اننا نستطيع ان نهمل الصعوبات التقنية في استخراج القياس بسبب عجز الأدوات وتأثير الظواهر الاخرى على القيمة المقاسة. ويتم تحقيق هذا النوع من التجريد، في الانتقال من التجارب الحقيقية الى التجارب الخيالية. ولهذا فان الموضوع المقاس في ظل شروط تجربة خيالية يمكن ان يسمّى موضوعاً قابلاً للملاحظة من حيث المبدأ.

كما ان التجارب الخيالية تجعل مفهوم المواضيع غير القابلة للملاحظة من حيث المبدأ، اكثر دقة والذي يتحتم اقصاؤه من النظرية، وتنقسم المواضيع غير القابلة للملاحظة من حيث المبدأ إلى فئتين - صروح نظرية مجردة، لها أهمية في العلم، ومواضيع تجريبية. والنظرية تحرم تلك المواضيع التي تنسب إلى الحالة التجريبية، وليست جميع المواضيع غير القابلة للملاحظة من حيث المبدأ.

والآن، بما هي المواضيع التي تدخل ضمن النوع الأخير؟

انها بكل وضوح تلك المواضيع التي لا يمكن تسجيلها حتى في التجربة الخيالية، ولندع جانباً التجربة الحقيقية. ولا يعود السبب في استحالة اكتشافها إلى الصعوبات التقنية، وانما إلى القوانين الفيزيائية. ولهذا فان التجارب الخيالية تسمح بالتجرد من مجمل التفاصيل التقنية التي تتضارب مع توضيح المواضيع التجريبية القابلة للملاحظة وغير القابلة للملاحظة من حيث المبدأ، ومع صياغة المعيار القاطع لعدم القابلية للملاحظة من حيث المبدأ: ان الاعتراف بواقعية المواضيع غير قابلة للملاحظة من حيث المبدأ يتعارض مع المبادئ والقوانين الفيزيائية المنشأة.

ان حل مسألة المواضيع القابلة للملاحظة في النظرية النسبية العامة والخاصة، لا يجعل من هذه النظرية مخططاً تأملياً، بل على العكس، فإن الفيزياء النسبية باعتبارها متميزة عن الفيزياء الكلاسيكية، تعرض تعريفاً تجريبياً دقيقاً للمفاهيم الزمكانية. ولهذا فان النظرية النسبية الخاصة تكشف عن المعنى الفيزيائي لمفهوم تزامن الاحداث التي تحصل في أماكن مختلفة، والذي اعتقد بأنه واضح بشكل بديهي في الفيزياء الكلاسيكية، وفهم بشكل تأملي بحت. لقد حققت النظرية النسبية العامة الانتقال من الهندسة المجردة إلى الهندسة الفيزيائية. اضافة إلى ان القصور الاينشتايني عن المواضيع القابلة للملاحظة قد سمح باقصاء المواضيع غير القابلة للملاحظة بشكل أساسي من الفيزياء، مثل تأثير لورنتس.

ويتم التعبير في بعض الأحيان عن الرأي القائل بان موقف اينشتاين تجاه مسألة المواضيع القابلة للملاحظة، قد تغير بعد صياغته للنظرية النسبية الخاصة والعامية، وانه قد تبني الرأي القائل بان هذه المسألة هي جوهرية بالنسبة للفيزياء. والواقع، ان اينشتاين كان قد كتب في رسالته إلى الفيلسوف الأنجليزي البارز كارل بوبر، بأنه «لم يُعجب على الاطلاق بالنزعة (الوضعية) الحديثة في التشيء بها هو قابل للملاحظة» [٦، ص ٤٥٨]. ومع ذلك فمن الصعب تماماً تفسير هذا الكلام بانه موقف سلبي لأينشتاين تجاه مبدأ القابلية للملاحظة. فأينشتاين لم يعارض مطلقاً هذا المبدأ بقدر ما عارض تفسيره الوضعي الذي وحد بين هذا المبدأ مع اختصار النظريات إلى جمل بروتوكولية. وباعتباره متميزاً عن الوضعيين المنطقيين، آمن بان الموضوع القابل للملاحظة تجريبياً يعتمد على النظرية. وقد اقتبس هايزنبرغ الكلمات التالية كتعبير عن رأي اينشتاين حول هذه المسألة: «ان تكن قادراً على ملاحظة شيء ما ام لا، فان ذلك يعتمد على النظرية التي تستخدمها. فالأخيرة هي التي تقرر ما هو الممكن ملاحظته» [٧، ص ٣٧]. ولكن التأكيد على اعتماد الموضوع القابل للملاحظة على النظرية لا يلغي مبدأ القابلية للملاحظة، بل يشرحه ويعلل طبيعة الموضوع القابل للملاحظة من حيث المبدأ التي تشكل جوهر ذلك المبدأ.

لقد اعتقد بريجمان بان منهج النزعة الاجرائية قد وفردقة اكبر للفيزياء. ونتجت هذه الثقة من حقيقة ان النزعة الاجرائية وهي تزيل الصروح الاعباطية من الفيزياء، قد ضمنت صلات أوثق بين النظرية والتجربة. وفي هذه الحالة، فان الدقة الأكبر لم تُحرز من خلال افقار العلم. كتب بريجمان «لا ارى سبباً في ضرورة ان يكون للطريقة الاجرائية اي تأثير كايح لأي تنظير منطقي، فطالما ليس لها أي تأثير تكون مفيدة لأنها تزيد من الدقة» [٨، ص ٣٢].

ان الحالة الحقيقية تختلف جوهرياً عن هذا التقييم. فالحاجة إلى تعريف اجرائي للمفاهيم الفيزيائية في ظل ظروف تجربة حقيقية تفرض قيوداً جديدة على

الفيزياء كعلم . وان التنفيذ الثابت لهذه الحاجة يمكن ان يدمر الفيزياء عموماً باعتبارها علماً نظرياً . وهذا هو السبب في عدم اصرار بريجمان على التنفيذ الكلي للبرنامج الاجرائي . ولكن ، حتى لو تم تنفيذ هذا البرنامج بشكل جزئي ، فان ذلك سيؤدي إلى ابعاد عدد من المسائل والميادين الهامة عن الفيزياء . فعلى سبيل المثال اصرار بريجمان نفسه ، على ان الباحث لن يتمكن ابداً من معرفة ماذا يوجد داخل النجوم ، او ماذا حدث قبل ملايين السنين [٨ ، ص ١٩٢] . وهكذا فان الفيزياء الفلكية وعلم الكونيات يعتبران من وجهة النظر هذه ، مجموعة من الفرضيات التأملية خارج العلم .

ونود ايضاً ان نحدد التشابه بين المبادئ الاجرائية والحدسية الرياضية لبرووير ، وهو اتجاه في اسس الرياضيات نشأ في اوائل القرن العشرين . فقد اعتقد برووير واتباعه بان السبب في ازمة الرياضيات الكلاسيكية التي اتضحت في تناقضات نظرية المجموعة لـ (كانتور) ، يكمن في الاستخدام الرياضي لتجريدات انشائية غير نظامية تعتمد على مفهوم اللانهاية الحقيقية . وللتغلب على هذه الازمة ، ولتوفير اساس اكثر واقعية للرياضيات ، فقد اقترح ان تُقْتَصَر الرياضيات على المواضيع الانشائية فقط ، أي تلك المواضيع التي يمكن الاشارة إلى حساب انشاءاتها . ان التنقيح الحدسي للرياضيات يؤدي في الواقع إلى ازالة التناقضات ، ولكن ذلك قد جرى تحقيقه بالافكار الجوهرية لمحتوى الرياضيات - بأبعاد عدد من الفروع الهامة عنها .

ويبدو ان بريجمان كان منسجماً مع برنامج الحدسية الرياضية . فقد نوه به في اكثر من مناسبة وعبر عن استحسانه للبرنامج . [٤ ، ص ٤١] . ويخرج المرء بانطباع ، ان بريجمان قد قام ايضاً باجراء نوع مماثل من التنقيح في الفيزياء مثلما قام به الحدسيون في الرياضيات . وباعتباره احد انصار الحدسية الرياضية فقد ضحى بثروة محتوى الرياضيات العلمية في سبيل البحث عن تجسيد اكثر دقة بالنسبة لها ، والذي أثبت بانه مجرد وهم .

ان الموضوع الاساسي للتنقيح الاجرائي هو تجزئة الشكلية الرياضية غير
المفسرة تجريبياً في الفيزياء . فبقصد تحرير الفيزياء من (الافراطات) الرياضية ،
ربط بريجهان الأجهزة الرياضية بالحالة التجريبية الحقيقية . وبالرغم من ذلك ، فان
هذا البرنامج المركزي المنهجي لم يُثبت فائدته بالنسبة للفيزياء .

ان التناول الاينشتايني للشكلية الرياضية مختلف تماماً . فلم يكن يريد لها أن
تكون قيوداً منذ البداية ، والتي اعتبرها بريجهان ضرورية . بل على العكس ، فقد
كان الى جانب حرية تطور الشكلية الرياضية بشكل اكثر او اقل تجريبياً . وهذا
التناول جعل في الامكان الاستخدام الكامل للوظائف المساعدة للرياضيات في
العلوم التطبيقية . ولم تُظهر طريقة اينشتاين فوائدها في صياغة معادلات النظرية
النسبية العامة فحسب ، وانما في تطورها اللاحق ايضاً . فقد اثبتت هذه المعادلات
امتلاكها محتوى اكثر غنى مما توقع لها اينشتاين نفسه ، فاينشتاين اصلاً ، اعتقد بأن
معادلاته تُجيز الحلول الاستاتيكية فقط . وانطلاقاً من هذه الفرضية ، حصل
اينشتاين على نموذج كوني لا يتغير مقياسه المكاني مع الزمن . وخلص إلى ان البنية
المكانية ذات المقياس الثابت هي فقط التي تسمح بها النظرية . ولكن فيما بعد ،
ظهر ان هذه الخلاصة خاطئة . ففي عام ١٩٢٢ وجد أ.أ. فريدمان ان الصروح
ذات المقاييس التي تتغير مع الزمن تتلائم هي الأخرى مع معادلات اينشتاين ،
مثلها مثل الصروح المكانية الثابتة . وبعد اكتشاف هوبل للازاحة الحمراء ، ظهر
ان النماذج الديناميكية تشرح بنية العالم الحقيقي بشكل افضل من النماذج
السكونية ، وهكذا غدت المعادلات (اذكى) من مكتشفها .

وهذا المثال ليس وحيداً ، فثمة الكثير من الحقائق المشابهة يمكن ملاحظتها
في النظريات الفيزيائية الأخرى التي تسمح بالتحرر من القيود الاجرائية في تطور
الشكلية الرياضية . ويمكن ان نذكر هنا التنبؤ الرياضي البحت لـ (ماكس
ويل) حول الموجات الكهرومغناطيسية ، وتوكيد ديراك للجسيمات المضادة ، وعدد
من الحقائق المماثلة الأخرى .

وكان يبدو ان المبادئ التجريبية لبريجمان ستؤدي إلى تفسير أكثر (واقعية) للفيزياء كعلم . فوفقاً لهذه المبادئ كان على الفيزياء ان تتحرر من الصروح النظرية التجريدية ، ومن التعميمات التي تذهب إلى ما وراء اطار التجربة ، اضافة إلى الأفكار التي لا تمتلك تجسيداً تجريبياً مباشراً ، وكل ذلك بالطبع سيحجم الفيزياء ويختصرها الى مجرد حالة من الوصف الظاهراتي ، ونوعاً من البليوغرافيا للحقائق . ولاتمام ذلك كان على الفيزياء ان تحتفظ بالحقائق (الموثوقة) بشكل مطلق والتي تعرض التصورات الموضوعية للعالم الفيزيائي .

ويمكن الحديث عموماً عن هذا النوع من التنقيح التجريبي للفيزياء بأنه جائز منطقياً . ولكن تجريبية بريجمان لم تساهم في اعلاء القيمة الموضوعية للمعرفة الفيزيائية ، بل على العكس ، قدمت عناصر من الذاتية في تفسيرها .

ثمة ظرفان يقرران تفسير بريجمان الذاتي للعلم الفيزيائي . الأول هو التفسير الاجرائي لمحتوى المفاهيم الفيزيائية . فكما حددنا سابقاً ، عارض بريجمان النظرية الاستمولوجية حول المفاهيم ، والتي تقول بأن للأخيرة اسنادات في العالم الموضوعي . فحسب رأيه ، ان محتوى المفاهيم يتحدد من خلال اجراءاتنا عليها ، وليس من خلال خواص الأشياء في العالم الموضوعي . فالمفاهيم في هذه الحالة يتم الكشف عنها من المواضيع وهي منغلقة على نفسها :

واجمالاً ، يمكن للمرء ان يفهم الباعث الذي يدفع بريجمان للتشديد على دور العنصر الاجرائي في تشكيل محتوى المفاهيم . فقد عارض التفسير التأملي البسيط لعلاقة المعرفة الفيزيائية بموضوعها . وهذا مايتضح على سبيل المثال فيما يلي : «ان (الخاصية) هي مفهوم ملفق ، عرف نفسه بخاصية ان للأشياء خواص مستقلة عما نقوم به او نفكر به . ولكن من الخطر ان نعرف المفاهيم بخواصها ، ففي هذه الحالة سيبدو واضحاً ، اننا نسعى إلى المستحيل ، لأننا لم نتذكر ان على (الخاصية) ان تجد معنى لها في الاجراءات» [٤] ، ص ٤٣ .

هذه الفقرة تجمع ما بين كره بريجمان للتفسير التأملي البسيط للمفاهيم الفيزيائية وبين ذاتيته . اننا وبكل تأكيد لا نستطيع قول أي شيء عن خواص العالم الفيزيائي دون الاجراءات ، دون قياسها الحقيقي ووصفها النظري . وهذه الاجراءات هي التي تترك اثرأ على محتوى المفاهيم . وبريجمان على حق تماماً في هذا الأمر . ويجب ان يُكافأ لقيامه بلفت انظار الفيزيائيين إلى دور العنصر الاجرائي في تشكيل محتوى المفاهيم . ولكن سيكون من الخطأ الاصرار على ان الاجراءات هي التي تخلق خواص الاشياء . ان الاجراءات الادواتية للقائم بالتجربة لا تخلق خواص المواضيع الفيزيائية ، وانما تسهل من عملية اظهارها .

والثاني ، ان ذاتية بريجمان تتضح أيضاً في التأكيد الدائم على عنصر الشخصية (الفرد) في النشاط العلمي ، في رفض الشرعية العامة والسمة الاجتماعية للعلم . كتب بريجمان «لا مفر من حقيقة اني الذي يمتلك الخبرة ، احاول ان أنسق في النظرية الفيزيائية ، وانني يجب أن أكون المركز الأساسي لأي حساب يمكن ان اقوم به . . . وبيدولي ان محاولة تحجيم هذه الحقيقة تتضمن رفضاً متصلباً في قبول البنية الواضحة للتجربة» [٤ ، ص ٨٣] .

ويتطوره لتصوره عن النوعية الشخصية للنشاط العلمي توصل بريجمان إلى رفض حقيقة ان العلم يدرس القوانين الموضوعية التي تمتلك شرعية عامة بالنسبة للباحثين . وانتقد موقف اينشتاين الذي سلم بوجود قوانين فيزيائية عامة يمكن التعبير عنها بشكل موحد نسبياً خارج وعي الانسان . فكتب «ربما ان الوصف الشامل لموقف اينشتاين تجاه العقل فيما يتعلق بالنظرية العامة ، هو انه اعتقد بإمكانية الابتعاد عن وجهة النظر المكانية للمراقب (الشخصية) ، (الفرد) ، واعلاؤها إلى شيء كوني ، (عام) و(حقيقي) . وسأخذ من الجانب الآخر موقف التحليل التفصيلي لأي شيء نقوم به في الفيزياء للكشف عن استمالة الابتعاد عن نقطة البداية الشخصية [١ ، ص ٣٤٩] .

ان الفيزيائيين الذين يتقبل معظمهم النظرة المادية عن العالم ، يعتبرون

جميع حجج بريجهان غير مبررة . بقيمة العلم تكمن في توفير المعرفة الموضوعية عن العالم التي لا يمكن تقليلها إلى مجرد وجهة نظر شخصية ، إلى مجرد ادراكات حسية شخصية لعلماء فرديين . والحق ان تشديد اينشتاين على هذه النقطة يُظهر قوة موقفه الفلسفي .

وسيكون من غير الصحيح بالطبع ، اعطاء صفات مثالية لطريقة اينشتاين الابداعية ، بالاصرار على انه كان على صواب دائماً . فقد كان ثمة جانب في طريقته منعه من اعطاء تقييم صحيح لميكانيك الكم . فنحن نعرف ان اينشتاين انتقد تفسير ميكانيك الكم المقدم من قبل هايزنبرغ وبورن . ولم يقبل طريقة الادراك التي اكدت نفسها في ميكانيك الكم ، والمتمثلة بأن على النظرية الفيزيائية ان تصف الموضوع بالشكل الذي يقدمه لنا القياس الفيزيائي ، وليس الموضوع كما هو . فقد اعتقد اينشتاين بأن المواضيع الفيزيائية يمكن أن تفهم بصورة أكثر أو أقل (تأملية) ، من خلال انشاء نموذج رياضي متطابق معها ، والذي يمكن اثبات صحته بعد صنعه ، من خلال التحقق من النتائج التجريبية التي تلي الوصف النظري . ولكن عقلانية اينشتاين وإيمانه بإمكانية الادراك الفكري البحت للعمليات المجهرية ، لا تتفق مع طبيعة الادراك الميكانيكي الكمي .

وبصرف النظر عن هذا القصور ، فان آراء أينشتاين في جوهر الادراك الفيزيائي وطرائق التجسيد التجريبي للنظريات الفيزيائية هي بدون شك ارقى منزلة من اجرائية بريجهان .

جدل اينشتاين - بوهر

من الصعب ان تتمكن الكلمات من التعبير عن مشاعر التواجد في حضرة شيء عظيم، ألا وهو تحليل واحدة من المعارك الفكرية البارزة في تاريخ المعرفة العلمية، جدل اينشتاين - بوهر حول مسائل ميكانيك الكم. فقد كانت هناك سجالات علمية قبلها وبعدها، لكن هذه السجلات لم تحظ بنفس المديات الواسعة من الاهتمام والانتباه.

كيف يمكن ان نعلل المكانة الخاصة التي نالها هذا الجدل من بين المجادلات العلمية الأخرى؟. احد الاسباب كان بالتأكيد، موضوعها - نظرية الكم-. التي تعتبر احدى النظريات الفيزيائية الثورية في مجمل تاريخ المعرفة، بيد ان ذلك لم يكن السبب الوحيد. فمن المعتاد ان تنتهي المناقشات حول مصداقية النظريات حالما تثبت احدى النظريات افضليتها على النظريات الأخرى، التي سرعان ما يجري شطبها من التاريخ. بيد ان جدل اينشتاين - بوهر قد مس النواحي الاعمق لمسألة الادراك العلمي للعالم ومبادئه الاساسية. ان هدف واهمية هذا الجدل يتحددان باختيار طرائق تطور الادراك العلمي المتضمنة في الجدل.

وقد شمل هذا الجدل عدداً من المسائل المترابطة: المبادئ العامة التي يمكن من خلالها استنباط نوع ملموس من قوانين الفيزياء، بدلاً من إيجاد هذه القوانين من خلال تعميم النتائج التجريبية. وضوح وتمييز المعرفة بدلاً من تناقضها؛ استمرارية العمليات وتفرد العالم؛ السببية الشاملة والصدفة؛ وجميع هذه المسائل ترتبط صميمياً بنظرة العالم العامة للعالم، بالاستمولوجيا. ولهذا السبب لم يكن لجدل اينشتاين - بوهر أهمية علمية فحسب، بل، وفي المقام الأول، محتوى فلسفياً عاماً.

ويمكن تحديد عدة مراحل في تطور هذا الجدل. اذ تركز النقاش في كل مرحلة على جزء محدد من المسائل المذكورة آنفاً بحيث يوضح الجزء الأول منها موقف اينشتاين، ويوضح الجزء الثاني موقف بوهر. دعونا ندرس هذه المسائل التي شكلت محتوى الجدل بتفصيل اكبر لدى كل من اينشتاين وبوهر على التوالي.

ان واحدة من اهم مقومات نظرية اينشتاين للعالم، هي ايمانه بان مهمة الفيزياء هي البحث عن المبادئ الأساسية ذات الدرجة العالية من العمومية، التي تسمح باستنباط قوانين ملموسة للظواهر المعطاة بأقل افتراضات ممكنة، واللجوء إلى الحقائق التجريبية (انظر مؤلفه «مبادئ البحث») [ص - ص ٢٢٤ - ٢٢٧]. وقد انعكس ذلك في تصور اينشتاين لتفسير النظرية العلمية باعتبارها ابتكاراً حراً للفكر البشري (انظر الصفحات المذكورة آنفاً ومؤلفه «حول طريقة الفيزياء النظرية») [ص - ص ٢٧٠ - ٢٧٦]. وكذلك في برنامجنا عن نظرية المجال الوحدوي (Unitary field-theory programme)، اذ تبني اينشتاين فيه الفكرة القائلة بأن الوجود الحقيقي للاكترون كان كافياً لانشاء نظرية المجال الموحد للمادة. والتزاماً بهذه الفكرة، فقد اصر على ان ميكانيك الكم باعتباره نظاماً نظرياً كان وثيق الارتباط بالنتائج التجريبية التي يصفها، وذلك ما افقر المبدأ العام «الابحاث المتعلقة باسس الفيزياء النظرية» [٢، ص - ص ٤٨٧ - ٤٩٢].

وبمقابل اينشتاين ، فلإن بوهر ومدرسته (هايزنبرغ خصوصاً) اعتبروا ان (تجريبية) ميكانيك الكم هي ماثرة للنظرية وليس ارتداد عنها . والدليل على ذلك هو مبدأ قابلية الملاحظة الذي اعتمد عليه هايزنبرغ في انشاء ميكانيك الكم (٣) ، ص ١ - ٣] والموقف السلبي لأينشتاين ازاءه . ان مبدأ قابلية الملاحظة يعبر عن نوعية المواضيع الملاحظة تجريبياً ، والتي تميز جزءاً من الواقع قيد الدراسة ، وهكذا فان النظرية مرتبطة تماماً بالتجربة . وهذا الربط بين النظرية والتجربة ، من الممكن ان يذهب بعيداً إلى ما وراء اطار المبادئ الاساسية والمنشأة من خلال التطور السابق للفيزياء ، وربما يتناقض . وهذا التناقض ، حسب رأي اينشتاين ، هو على الأقل دليلاً تصويرياً لعدم اكتمال النظرية .

ان مسألة ايجاد نظرية ملموسة من خلال مبادئ عامة ، او من خلال تعميم (بالتعبير الواسع للمصطلح) مادي تجريبي ، ستتحول بشكل طبيعي إلى مسألة وضوح وتمايز المعرفة ، وعلاقة هذا الوضوح بالوجود الحقيقي .

ان الحاجة إلى الوضوح والتمايز اللذان يعودان إلى التقليد الديكارتي ، تنبع بصورة مباشرة من الحاجة لوجود مبدأ عام لا يتضمن اي تناقضات داخلية . وقد التزم اينشتاين بهذا التقليد عند اكتشافه للنظرية النسبية الخاصة والنظرية النسبية العامة ، واثناء محاججته لبوهر ، الذي يمتد تفكيره بصورة جذرية إلى ما وراء تقليد الوضوح . ان نمط بوهر في التفكير قد تضمن الشعور بالطبيعة المفارقة للوجود ، بتناقضه الداخلي الذي انعكس بشكل لا عقلائي في التفكير . ان تصور بوهر عن موضوع الكم بوصفه : «قد عُرف بشكل ضبابي في المكان والزمان» يفضي بشكل طبيعي إلى معارضة مقولات الاستمرارية والانقطاع وكذلك التعريف الدقيق للسببية والصدفة .

ان وضوح وتمايز المخطط النظري في التفسير الاينشتايني يعكس البنية الاساسية للواقع . ومن ثم تصوره عن بساطة الطبيعة والحاجة إلى الاستمرارية : (ان نظرية المجال وجدت كبرنامج : «الوظائف المستمرة في الابعاد الأربعة

(المتصلة) باعتبارها مفاهيم أساسية للنظرية» [٤، ص ٦٧٥]. ان استمرارية اي ناحية من نواحي الوجود تتعارض من حيث المبدأ مع الانقطاع والصدفة. وفقط الانقطاع الجزئي على شكل حلول فردية زائفة لبعض المعادلات (اللاخطية) لنظام المجال هو المسموح به. والشيء عينه صحيح بالنسبة للصدفة. فالصدفة لا تعارض حتمية الحلول المستمرة لمعادلات المجال، وانما الاستمرارية بحد ذاتها، وتمثل الصدفة عنصر الانقطاع في الوجود: لتحقيق حالة ممكنة معينة فان جميع الامكانيات الاخرى تُلغى من الوجود، اي، انتهاك مبدأ الاستمرارية.

ان الطبيعة المفارقة للوجود، والانقطاع والصدفة المرتبطان بها، شكلت السمات الاساسية لنظرة بوهر للعالم، مثلما شكل الوضوح والاستمرارية والتحديد الصارم سمات لنظرة اينشتاين للعالم. ان الأخذ بكل ما سبق وتفسيره بصيغة نظرية ملموسة (ميكانيك الكم) قد اعطى دفعة للجدل الذي هو موضوع تحليلنا. وهكذا فان جدل اينشتاين - بوهر ليس صراعاً بين آراء شخصية لاثنين من ابرز العلماء في عصرنا، وانما صراع بين تصورين اساسيين يمتلك كل واحد منهما نوعية متكاملة داخلياً ويستند على تقاليد التطور السابق للعلم. ويمكن الاشارة إلى ان النظرة للعالم التي عرضها اينشتاين كان لها جذوراً اعمق في الفترة الكلاسيكية للفيزياء، من نظرة بوهر للعالم، اذ تناسجت فيها النواحي التقليدية لصورة العالم الفيزيائي، اي، الصلات الوثيقة بين النظرية الفيزيائية والتجربة، مع النزعات اللا كلاسيكية الجديدة. وبتذكر ذلك سيتعين على المرء ان يتخلى عن الفكرة القديمة بان اينشتاين يمثل النزعات المطلقة والمحافظة في هذا الجدل. لقد لعبت وستلعب العديد من عناصر التصور الاينشتايني عن الواقع الفيزيائي دوراً هاماً في النظرة إلى العالم بالنسبة للعلماء، حتى لأولئك الذين ناصروا مواقف بوهر دائماً.

دعونا ندرس سياق النقاش بشكل صحيح. ونحن لا نبتغي شرحه بالتفصيل، فالهم هنا هو موضوع مقالة بوهر الشهيرة «مناقشة مع اينشتاين حول

المسائل الاستمولوجية في الفيزياء الذرية» [٤، ص - ص ١٩٩ - ٢٤١].
وسنعي فقط بأوجه الجدل التي لا تزال تحمل أهمية إلى وقتنا الحاضر.

كما اشرنا سابقاً، ان السياق الداخلي للجدل يمكن ان ينقسم إلى ثلاثة مراحل. تتضمن المرحلة الأولى مناقشة علاقة الشك ومحتوى ميكانيك الكم. وقد ارتبطت تلك المرحلة بالمؤتمر العالمي للفيزيائيين في كومو ١٩٢٧ وبمؤتمر سوليفي عام ١٩٣٠. ويمكن ان تؤرخ بداية المرحلة الثانية بعام ١٩٣٥، عندما ظهرت المقالة الشهيرة التي كتبها كل من اينشتاين وبودولسكي وروسين بعنوان «هل يمكن اعتبار شرح ميكانيك الكم للواقع الفيزيائي كاملاً؟» [٥، ص - ص ٧٧٧ - ٧٨٠]. وتتميز هذه المرحلة بمناقشة مسألة اكتمال ميكانيك الكم ويشكل اكثر عمومية بمناقشة المطالب المفروضة على النظرية العلمية. ولا تزال المرحلة الثالثة قائمة لأيامنا هذه. ومن المهم جداً بالنسبة لنا، كما كان سابقاً ان يتضح عمق الطبيعة الاساسية للمسائل التي شكلت محتوى الجدل. ويمكن القول بان هذه المرحلة قد بدأت في عام ١٩٤٩ واستمرت إلى الوقت الحاضر. ويتعلق محتواها الرئيسي بمسألة الصفات المختبأة، اي، مسألة اكتمال ميكانيك الكم التي يمكن ارجاعها إلى المعضلة العامة لمقالة اينشتاين، بودولسكي، وروسين.

دعونا ندرس سياق المناقشة استناداً إلى تقسيم المراحل المقترح. في البدء، لم يتلائم اينشتاين مع المنحى التطوري لميكانيك الكم وحاول اظهار تناقضاته الداخلية باستخدام حقيقة ان المحتوى والأجهزة الرياضية لهذه النظرية في تفسير مدرسة كوبنهاغن يتميزان بصورة جوهرية بالغموض في شرح حالة الموضوع المجهري بفعل علاقة الشك لهايزنبرغ. وظهر اينشتاين بسلسلة من التجارب الذهنية ان المعلومات عن الحالات المثالية حول موضوع الكم التي يمكن استخراجها، تتناقض مع علاقة الشك. واثبت موديلاتة بفكرة ان القيود المفروضة من قبل علاقة الشك، يمكن تجنبها من خلال الأخذ بالحسبان التفاعل بين الموضوع

المجهري والجهاز بتفصيل اكبر مما هو عليه الحال في التجارب الذهنية العادية من نوع تجارب هايزنبرغ .

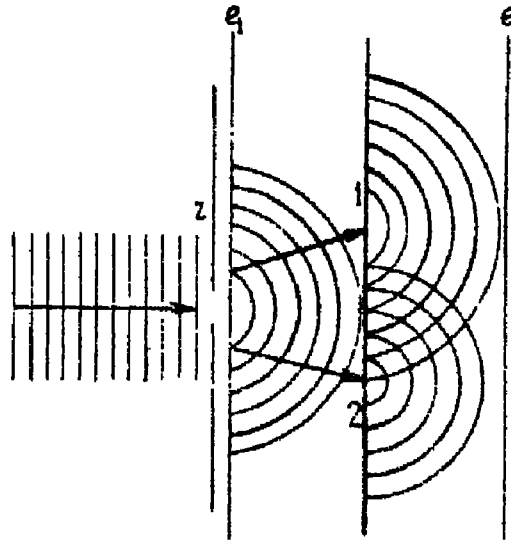
وفي رده على التحليل النقدي لأينشتاين، اظهر بوهرا انه طالما كانت هناك رغبة بالأخذ بالحسبان التفاعل بين الموضوع المجهري والجهاز، فقد كان من الضروري ان نتذكر الشكوك الملازمة للجهاز نفسه، اضافة إلى حقيقة ان أي تغيير في نوع التفاعل بين الموضوع المجهري والجهاز يمكن ان يؤثر بشدة على نتائج التجربة. ان الناحية الأولى للحجة المضادة لبوهر. اي، الحاجة لحساب الشكوك في الجهاز نفسه، هي ناحية مهمة في تحليل مسائل التجربة الذهنية ولشروط الاتساق والاتفاق الداخلي لمثل هذه التجربة. ان دراسة بوهر المفصلة لهذه المسائل قد اثبتت اهميتها بالنسبة للتطور اللاحق للتجارب الذهنية. ويظهر ذلك نفسه بوضوح في الصياغة الأولية لنظرية مجال الكم، عندما قام كل من بوهر وروسينفليد بتحليل قياس المجالات في دراستهما المعنونة (بصدد مسألة قياس مركبات المجال الكهرومغناطيسي) انظر [٦، ص ٣ - ٦٥]. واثبتا حالات غياب التناقضات في هذه النظرية.

وللناحية الثانية للحجة المضادة لبوهر اهمية اكبر، كونها في الحقيقة، قد وضعت الاساس لمفهوم التامة (Complementarity). التي لاتعتبر واحدة من المركبات الجوهرية للنظام المفاهيمي: ميكانيك الكم فحسب، بل - كما افترض بوهر وبعض العلماء مبدأ منهجياً عاماً لعلم الطبيعة ككل (انظر مقالة نيلز بوهر «البايولوجيا والفيزياء الذرية» [٧، ص - ص ٦ - ١٥]. والمؤلف رقم (٨).

دعونا ننظر عن قرب لهذه الناحية في رد بوهر على الملاحظات النقدية لأينشتاين. فخط التفكير لدى اينشتاين يبدو واضحاً من خلال تحليلنا للتجربة الذهنية التالية (انظر الرسم رقم (١)).

عند القيام بتجربة حول التداخل في حالة اعتيادية (دون وجود الغطاء المتحرك Z) لا يمكننا التحقق عن طريق اي من الشقين الطولين (١ أو ٢) قد مرت

الجسيمة . ولكن يمكننا ذلك بوضع الغطاء المتحرك Z ومراقبة حركته (صعوداً أو هبوطاً). وفي الوقت عينه فإن الصورة المنحرفة على الشاشة θ تزودنا بالمعلومات عن طول الموجة (زخم الجسيمة). وعند تحليله لهذه التجربة الذهنية، اظهر بوهر ان تفاعل الجسيمة مع الشاشة θ يدمر الصورة المنحرفة التي يمكن ملاحظتها اذا كان الغطاء المتحرك Z ثابتاً لا يتحرك.



الرسم رقم (١)

هذه الحجة التي قدمها بوهر تعبر عن كامل مبدأ التمامية: ان القياسات الجسيمية والموجية لا يمكن دمجها في جهاز واحد. فالخواص الجسيمية والموجية للموضوع المجهرى تظهر فقط في ظل حالات مختلفة (تناسب مع وسيلة

المراقبة). وكان لاكتشاف هذا المبدأ أهمية حاسمة في تطور ميكانيك الكم. وبالارتباط مع التفسير الاستاتيكي لوظيفة الموجة، فقد شكل قاعدة لما يمكن ان نسميه بـ (تفسير) لهذه النظرية. وبعد ان تمت صياغة العناصر الاساسية للنظام المفاهيمي لميكانيك الكم، زادت امكانية تفسير النظرية على اساسها المنطقي. وهكذا فان مفهوم التمامية قد انبثق بفعل الحاجة إلى حل المفارقات التي وجدها اينشتاين. ان المرحلة الأولى من الجدل لم تفض إلى اثبات متانة وتماسك ميكانيك الكم، واستيعاب هذا التماسك من قبل اينشتاين نفسه فحسب، بل ايضاً إلى تفسير راسخ لهذه النظرية بالمقارنة مع تفسيرها قبل الجدل. وغداً واضحاً ان الطبيعة الاحتمية والمفارقية لوجود المواضيع المجهرية لم تؤد إلى تناقضات منطقية، بمعنى، ان بالامكان استقبالتها من قبل وعي الانسان، بوصفها محتوى للوجود نفسه.

بيد ان هذه النتيجة لم تكن مقبول بتاتاً من قبل اينشتاين. فقد دفعه تصوره عن الوضوح والتمايز إلى تناول مختلف لتفسير الحالة. فطالما تم اثبات ان تفسير بوهر للا حتمية وللتناقضات الداخلية في وجود المواضيع المجهرية، لم يؤد إلى تضارب منطقي للنظرية فقد ركز اينشتاين على مطلب أساسي آخر مفروض على النظريات العلمية، اي مطلب التكامل.

ان الطبيعة الاساسية لمطلب التكامل تبدو بدديه في الغالب. ونحن نقول (في الغالب) لأنه بات واضحاً بعد صياغة نظرية غودل (Gödel)، استحالة الاكتفاء بتفسير جلبرت (Gilbert) الصارم. ولكن الفيزياء ليست بحاجة إلى هذه الدرجة العالية من الصرامة. ان تفسير اينشتاين للتكامل قد تضمن الحاجة إلى ان تعطي النظرية اجابة واضحة عن حالة الواقع في اية نقطة زمكانية متصلة، وقد ظهر التعبير عن ذلك بدقة في تجاوز الوظائف المستمرة في الزمان - المكان مع الواقع، وبشكل اكثر دقة في البرنامج النظري للمجال [٤، ص - ص ٦٧٤ - ٦٧٥].

ويبدو واضحاً ان ميكانيك الكم من خلال التزامه بالشك في الطبيعة الاستاتيكية والانقطاعية للواقع الفيزيائي ، لا يُلبى هذا المطلب . وفي المقالة (هل يمكن اعتبار الشرح الميكانيكي الكمي للواقع الفيزيائي كاملاً؟) طرح اينشتاين مباشرة مسألة احتمال ميكانيك الكم . واقترح المعيار التالي للواقع الفيزيائي : (لو نتمكن دون اي تشويش للنظام ، من التنبؤ بثقة «باحتمالية تساوي واحد» بقيمة الكمية الفيزيائية ، عندها ستكون هذه القيمة عنصراً من الواقع الفيزيائي مرتبط بهذه الكمية الفيزيائية) [٥ ، ص ٧٧٧].

وحللت المقالة ايضاً التجربة الذهنية التي اظهرت امكانية التنبؤ الموثوق به ، (دون اي تشويش للنظام) ، الذي ينتج من ميكانيك الكم نفسه . ان جوهر الظاهرة التي تسمى الآن مفارقة اينشتاين - بودولسكي - روسين ، يكمن في حقيقة ان نظام الكم يعتبر متضمناً لموضوعين مجهرين تفاعلا مع بعضهما في لحظة معينة في الماضي ، مشكلين نظاماً واحداً .

وفيما بعد أفترض ان المواضيع المجهرية وبفعل نوع التفاعل قد انقسمت في المكان بطريقة يمكن اعتبارها لا تفاعلية . وتم مراقبة عدد من القوانين مثل قانون حفظ الطاقة وغيرها . والآن ، اذا تم اخذ القياس لمقدار معين في واحد من المواضيع المجهرية ، فربما يمكن التنبؤ بقيمة المقدار التالي لموضوع مجهري ثانٍ ، من خلال نتيجة القياس الأول وقانون الحفظ .

وفي مقالته ، درس اينشتاين حالة التجربة الذهنية ، وامكانية اعادة انتاجها في التجربة الحقيقية وبأنواع عديدة . فحسب رأي اينشتاين ، ان الحالة الموصوفة هنا تعني ، اما ان هناك واقعاً معيناً يحدد قيم المقادير المقاسة لكلا الموضوعين المجهرين ، او نشوء مفارقة اخرى ، والواقع انه اذا ابتعدت المواضيع المجهرية عن بعضها بشكل كافٍ ، لا يمكن لأي منهما ان (يعلم) ماذا حدث للآخر الا بعد حدوث تبادل في الاشارات التي تنتشر بسرعة الضوء او اقل . ونظراً لأن الحالة

الأولى قد رُفضت في التفسير الارثوذوكسي لميكانيك الكم ، فقد دُعيت بمجل الحالة بمفارقة اينشتاين - بودولسكي - روسين ، أو مفارقة (ابن للاختصار. ان مفارقة (ابن) ، تتعلق من حيث المبدأ ، بمفارقة شرودنجر السابقة (مفارقة «القطع») وكذلك بمفارقة دي بروجلي . على سبيل المثال ، فان الصندوق الذي يحتوي على جسيمة واحدة - في مفارقة دي بروجلي - قد قُسم بقاطع ما إلى قسمين ، وجرى ابعاد القسم الأول عن الثاني بشكل كافٍ . فالمرابة لقسم واحد من هذين القسمين يجعل وظيفة الموجة تتلاشى حالاً (اذا لم يكن هذا القسم حاوياً للجسيمة) ويجعلها بحالة انسجام مع القسم الآخر ، او العكس بالعكس [٩ ، ص - ص ١٢ - ١٣] . وفي هذه الحالات يمكن القول ان وظيفة الموجة (كتلة الموجة) قد نقصت .

لهذا فان نمط الحالات المفارقة كان معروفاً قبل اينشتاين . ولكن الأخير كان اول من لاحظ ان المفارقة الحقيقية (بالتناول الكلاسيكي) تنشأ عندما ندرس نظام الكم للجسيمة المتعددة ، اكثر من دراستنا للجسيمة الواحدة (كما في مثال دي بروجلي) . والواقع ان بالامكان تفسير وظيفة الموجة في حالة الجسيمة الواحدة بوصفها (ملاحظة مراقب) ، بمعنى على مستوى معلوماتي بحت . وعموماً ليس هناك خلاصات ذاتية بأن المراقبة (اخذ القراءات) وتغير حالة الموضوع ، تنبع من هذه الحقيقة ففي التجربة ذات الجسيات المتعددة (جسيمتان في ابسط حالة) فان اختصار وظيفة الموجة يجري عند القيام بفعل القياس على جسيمة واحدة ، في وقت يمكن استخراج التنبؤ الواضح عن الجسيمة الثانية (دون اي تشويش للنظام) . وبالانسجام مع معيار اينشتاين الذي يعني ان هناك عنصراً محدداً للواقع ، يمكننا فقط معرفة معلومات عنه على شكل وظيفة الموجة المستخدمة في القياس .

لقد كانت مفارقة (ابن) اكبر تحدٍ جدي لميكانيك الكم . لقد طالبت التجارب الذهنية لأينشتاين للمرحلة الأولى بتحليل اكثر دقة للعمليات ، في حين

ان التركيز كان يستهدف العناصر الاساسية للنظام المفاهيمي - محتوى مفهوم وظيفة الموجة ومبدأ التركيب (Superposition). وقد كان نشر مقالة اينشتاين - بودلسكي - روسين، يعني ان ثمة سحابة سوداء تعترض خلفية النجاحات الرائعة لميكانيك الكم - مثل السحب التي دمرت صرح الفيزياء الكلاسيكية في بداية القرن العشرين.

كان رأي اينشتاين، انها كانت مجرد وصف ظاهراتي لظواهر العالم المجهرى الذي لا ينسب إلى الطبيعة الفيزيائية للواقع الميكروسكوبي. وكانت النظرية الحقيقية عن العالم المجهرى لا تزال تنتظر الصياغة [١٠، ص ٣١٨]. ولم يؤثر هذا الموقف على النتائج المتحققة، لكنه عمق من مستوى الشكوك بالتطور اللاحق لفيزياء العالم المجهرى المستند على استقراءات مبادئ ميكانيك الكم. وكانت تلك، بتعبير محدد، نقطة محورية: هل ستتطور الفيزياء ضمن مسار ميكانيك الكم، محتفظة بافكار الاحتمية، الانقطاع والطبيعة المفارقة للوجود، أم انها ستعود إلى الطريق (الديكارتي)؟ (ان تكون أولاً تكون - تلك هي المسألة...).

لم يتأخر كثيراً رد بوهر (انظر المقالات «ميكانيك الكم والواقع الفيزيائي» و «هل يمكن اعتبار شرح ميكانيك الكم للواقع الفيزيائي كاملاً؟» [١١، ص ٦٥، ٥، ص ٦٩٦]. فعند تحليله لمفارقة (ابن) ركز بوهر الانتباه على معنى تعبير اينشتاين (دون أي تشويش للنظام) فبالنسبة لأينشتاين تحسب أي جسيمة في تجربته الذهنية نظاماً. في حين حدد بوهر ان النظام في ميكانيك الكم يتألف من جسيمتين ترتبطان بوظيفة موجية واحدة. ومن خلال التأثير على جسيمة واحدة، فاننا بذلك نؤثر على النظام كله.

وهكذا فقد صاغ بوهر تصوراً جديداً عن الكلية (Wholeness) في ميكانيك الكم: ان التقسيم الصارم للنظام الميكانيكي الكمي إلى نظامين منفصلين مرتبطين بجسيمات فردية كان مستحيلاً قبل فعل التفاعل.

لقد عبر هذا الافتراض، في الواقع، عن الخلاصة المنطقية لميكانيك الكم، وباتت نظرية متكاملة منطقياً (متكاملة بالتعبير الفيزيائي). ولا يمكن القول عن التصور الجديد عن الكلية بأنه شيء جديد جذرياً في ميكانيك الكم. ففي الواقع كان ذروة التطور خلال العقد السابق. ان فكرة الكلية المتعذر اختزالها بالاشكال الكلاسيكية قد ضُمنت في مبدأ عدم قابلية تمييز الجسيمات، وفي مبدأ باولي، ومعادلة الجسيمة المتعددة لشرودنجر. فعلى سبيل المثال، فان معادلة شرودنجر لنظام المواضيع المجهرية المتعددة لم تكتب لكل موضوع على حدة، وانما لوظيفة الموجة العامة المعرفة في التوزيع المكاني لجميع الجسيمات.

وهكذا فإن فكرة الكلية التي تميز ميكانيك الكم كانت قد تضمنتها معادلة شرودنجر للجسيمات العديدة. وقد قامت حجة بوهر بجعل هذه الفكرة واضحة بشكل مطلق، رافعة اياها إلى مستوى عنصر للنظام المفاهيمي.

وقد استقبلت حجج بوهر من قبل المجتمع العلمي الدولي بمثابة انتصار نموذجي لميكانيك الكم. وفي كل الأحوال، لم يعد هناك شكوك حول التكامل الداخلي للنظرية وتماسكها. اعترف اينشتاين إلى حد ما: «بالاعتقاد ان هذا ممكن منطقياً دون تناقض، ولكن الامتناع عن البحث عن تصور اكثر تكاملاً سيكون مناقض لغريزتي العلمية» [١٠، ص ٣١٨]. وهكذا فقد التجأ اينشتاين بشكل واضح إلى الحدس الفيزيائي، أي إلى نظام الافتراضات الرئيسية للنظرية الفيزيائية للعالم التي تطرقنا لها في بداية المقال. ومع ذلك فان هذا التسليم من جانب اينشتاين لم يُعنِ نهاية المعضلة. فالعناصر الاساسية للنظرية عن العالم - الرغبة بالوضوح، التكامل، وبعدم الغموض والالتباس - ذات اهمية بالغة بالنسبة لأي فيزيائي، لأن معارضتها تعتبر عملية فيسولوجية صعبة. ويمكن أن نشدد بشكل اكبر على ان: هذه الافتراضات هي في الغالب مقدمة لا يمكن تجاهلها في الادراك العلمي. ولهذا سيكون اكثر صحة الحديث عن اعادة التفسير

لمصطلحات الوضوح، التكامل وعدم الغموض بدلاً من الحديث عن المعارضة.

ولكن، حتى إعادة تفسير مثل هذه العناصر الأساسية للنظرة الفيزيائية للعالم هي ليست عملية سريعة. ولهذا السبب فمن الطبيعي جداً أن هذا الجدل الذي قطعه الأحداث الدامية للحرب العالمية الثانية عاد يظهر بسرعة عندما تبيأت الظروف المناسبة له.

ويمكن القول أن المرحلة الثالثة من جدل اينشتاين - بوهر قد بدأت في عام ١٩٤٩ مع نشر كتاب (البرت اينشتاين: الفيلسوف - العالم) (٤) الذي تضمن مقالات لبوهر وعددٍ آخر من العلماء البارزين لتطور ميكانيك الكم، من جانب، وردود اينشتاين عليها، من جانب آخر، انظر [٤، ص - ص ٦٦٥ - ٦٨٨]. ففي رده عاد اينشتاين إلى حججه في عام ١٩٣٥ وإلى أعماله اللاحقة (انظر «الفيزياء والواقع» [١٠، ص ٢٩٠ - ٣٢٣]. (نشوء الفيزياء) (١٢)، «ميكانيك الكم والواقع» [١٣، ص ٣٢٠ - ٣٢٣]، التي تستند على تصور الواقع باعتباره موجوداً بشكل مستقل عن أي دور للمراقبة، «الواقع كما هو» [١٣، ص ٣٢١]. وعلى معارضة الوصف الاحتمالي للموضوع المجهرى [٤، ص - ص ٦٦٨ - ٦٦٩، ١٢، ص ٢٩٧]. والتأكيد بان ميكانيك الكم الاستاتيكي لا يمكن ان يكون نقطة الانطلاق للتطور اللاحق لفيزياء العالم المجهرى [١، ص ٣١٨ - ٣١٩، ٤، ص - ص ٦٧١ - ٦٧٢]. ولهذا فقد انبعثت مرة اخرى مسألة المفاهيم الأساسية، مثلما أكدنا عليها اينشتاين نفسه في عنوان عمله في عام ١٩٥٣ «ملاحظات تمهيدية تتعلق بالمفاهيم الأساسية» [٤، ص ص ٤ - ١٤]. فهنا اعاد اينشتاين حججه بان الاستاتيكية لا يمكن اعتبارها شروحاتاً (كاملة) للواقع.

ولهذا يتضح بان المرحلة الثالثة لما بعد الحرب من جدل اينشتاين - بوهر قد تميزت بفهم اعمق لمحتواها الداخلي. فلم يعد هناك تساؤل عن تماسك ومتانة

. وتكامل النظرية (ميكانيك الكم)، وانما مسألة الواقع الفيزيائي نفسه، وعلاقة مفهوم الاحتمالية به وبالتالي، مجمل مستقبل الفيزياء.

هذه الصياغة الاساسية للمسألة قد زادت بشكل طبيعي من اهتمام المجتمع العلمي الدولي بها، اذ ان الصعوبات في تطور الفيزياء المجهرية التي اتضحت قبل الحرب (الاختلافات في نظرية مجال الكم) كانت لا تزال باقية. وقد كان اينشتاين وبوهر، اضافة إلى بضعة علماء آخرين (ماكس بورن، فون نيومان) المساهمين الرئيسيين للمرحلتين الأولى والثانية من النقاش، في حين شهدت المرحلة الثالثة مساهمة عدد اكبر من العلماء.

وكانت ابرز السمات المميزة للمرحلة الثالثة هي كما يلي: اعطاء عمق اكبر لعلاقة التفسير الاحتمالي لميكانيك الكم مع مسألة الواقع، هذا من جانب، ومن جانب آخر، فقد جرت المحاولات لرفض محتوى النظرية واجهزتها بالاستناد إلى الفهم الاينشتايني للواقع.

لندرس بشيء من التفصيل، الجانب الأول. ان نفاذ البصيرة الأعمق لميكانيك الكم قد تحقق كنتيجة لمعارضتها عناصر التفسير الوضعي لها بوصفها نظرية للظواهر الداخلية (Interphenomena) (هانز رشينباخ)، والاصرار على ان الكمية الاستاتيكية (مُخلَق) بواسطة تفاعل غير منظم، وتفسير العلاقة الحتمية بوصفها دليلاً على وجود حدود معينة في امكانية ادراك الموضوع المجهري (و. هايزنبرغ). فقد شددت أعمال بوهر لفترة ما بعد الحرب «بصدد أفكار السببية والتكاملية» [١٥، ص - ص ٣١٢ - ٣١٩]. «فيزياء الكم والفلسفة» [١٦، ص - ص ٣٠٨ - ٣١٤]، «مناقشات مع اينشتاين حول المسائل الاستمولوجية في الفيزياء الذرية» [٤، ص - ص ١٩٩ - ٢٤١]. وبشكل واضح تماماً، على محدودية تطبيق المفاهيم الكلاسيكية (الاحداثي، الزخم) في شرح المواضيع المجهرية، وعلى الاحتمالية المتأصلة في جوهر ظواهر العالم المجهري.

ان التفسير المتين لميكانيك الكم ولجوهر ظواهر العالم المجهري قد تمت

الاشارة له في اعمال الفيزيائي السوفيياتي ف. أ. فوك [١٧، ١٨، ١٩، ٢٠]. فقد طور فوك افكار بوهر وحررها من المصطلحات غير الملائمة وصاغ بشكل واضح العناصر الرئيسية لتفسير ميكانيك الكم. وسوف نناقش تفسير فوك، مقارنين افتراضاته الرئيسية مع افتراضات اينشتاين. فقد اعتقد اينشتاين بان «فيزياء الكم قد صاغت قوانين تحكم المجاميع وليس الافراد. وشرحت الاحتمالات وليس الخواص». [١٢، ص ٢٩٧]. في حين عرف فوك الاحتمالية باعتبارها خاصية اساسية للموضوع المجعري [١٧، ص ١، ١٨، ص - ص ١٣ - ١٤، ٢٠، ص ٩٥]. «ان حالة الموضوع المشروح بواسطة وظيفة الموجة هي موضوعية بمعنى (يوضح فوك) انها سمة موضوعية (مستقلة عن المراقب) للاحتتمالات الكامنة لنتيجة تفاعل معين بين الموضوع الذري والجهاز. وهذا المعنى ينطبق ايضاً على الموضوع الفردي المعطى» [١٧، ص ١٢].

لهذا فان مفهوم الواقع في الفيزياء قد تغير: فلم تعد تفسر الاحتمالية بوصفها قياساً للمعرفة البشرية او الجهل، وانما باعتبارها جوهرأ أو محتوى لظواهر العالم المجعري: الاختلاف بين الاحتمالية باعتبارها ميزة للمواضيع الفردية واسلوب ادراك هذه المواضيع قد جرى حسابه هنا ايضاً [٢٠، ص ٩٥]. ولولم يجر ذلك لحدثت انحرافات معينة في الادراك الحسي والتفسير لتجارب الاستاتيكية. ومن بين الاشياء الأخرى، فان الفشل في تحديد هذا الاختلاف سيؤدي إلى ما يسمى مجموعة التفسيرات لميكانيك الكم، التي هي ليست تفسيرات في حقيقة الأمر، وانما عرض للمستوى التجريبي للاستاتيكية.

ولكن التغييرات في تصور الواقع في ميكانيك الكم لم تكن مقتصرة على التغييرات في مفهوم الاحتمالية. فقد كانت اعمق من ذلك، اذ اثرت على المفهوم الاساسي لـ (الواقع كما هو)، الذي يرجع اليه اينشتاين دائماً عند مناقشة ميكانيك الكم. ان مفهوم (الواقع كما هو) بحد ذاته هو واحد من التجريدات الأساسية للفيزياء الكلاسيكية [٢٠، ص ٩ - ١١]. وبالضبط، فان هذا

التجريد كان هدف نقد اينشتاين في (٤) الذي اصر على النوعية الكلاسيكية لنظرتة عن العالم. ان معارضة هذا التجريد والحاجة إلى الأخذ بالحسبان تأثير اسلوب المراقبة لطبيعة العملية نفسها كانتا من اهم سمات ميكانيك الكم المثبتة في تصور بوهر عن التكاملية. وقد تمت مناقشة وصياغة هذا التصور في اعمال فوك، باعتباره مبدأ للنسبية فيما يتعلق بوسيلة المراقبة [١٧، ص - ص ٧-٨. ٢٠، ص - ص ١٤-١٥]. ويتطلب هذا المبدأ ان يتم اعتبار الواقع الفيزيائي واقعاً معطى في حالة ملموسة محددة اكثر منها (بنفسه). وقد صيغ التعميم اللاحق لهذا المبدأ على يد ب. يا. باخوموف باعتباره مبدأ للنسبية فيما يتعلق بنوع التفاعل (٢١).

ويمكن الاشارة إلى ان حالات مفهوم الاحتمالية ومفهوم الواقع الفيزيائي قد تشابكا بشكل وثيق جداً. والواقع ان التجريد الكلاسيكي لـ (الواقع كما هو) قد نال اهليته بفعل حقيقة ان الفيزياء الكلاسيكية تتعامل مع الحقائق اكثر من تعاملها مع الاحتمالات، واصبح المفهوم الكلاسيكي عن الواقع مجرد واحد من التعابير للتأكيد على وجود معرفة صادقة حول جميع المقادير الفيزيائية. ان تقديم الاحتمالية باعتبارها ميزة موضوعية لظواهر العالم المجهرى قد ادى بشكل طبيعي إلى الحاجة لأخذ الجهاز بالحسبان (أو بتعبير اوسع، نوع التفاعل) لانشاء طريقة يمكن من خلالها فهم الاحتمالات الكامنة التي ينتجها الموضوع المجهرى.

وقد حاول فوك تفسير الشكل الخاص للتكاملية في العالم المجهرى الذي اكتشفه بوهر باعتباره اظهارة لنوع معين من تفاعلات (اللاقوى) بطريقة مشابهة لتعميم العناصر الاساسية للتفسير الاحتمالي لميكانيك الكم [١٧، ص ٥]. وقد استخدم هذا المفهوم لتفسير مفارقة (ابن) والعديد من العلاقات المتبادلة الميكانيكية الكمية، مثل العلاقات المشروطة بمبدأ باولي.

ولكننا نعتقد ان تقديم مفهوم التفاعل لـ «اللاقوى» هو نوع من الاحترام للغة الفيزياء الكلاسيكية. وتبدو فكرة بوهر عن الكلية النوعية الميكانيكية

الكمية بأنها تعكس جوهرًا للظواهر المجهرية بشكل أعمق. ان تجسيد الاحتمالية بوصفها ميزة موضوعية للعمليات المجهرية، وان هذه العمليات هي نسبة فيما يتعلق بنوع الاداة (أونوع التفاعل)، وتصور الكلية النوعية قد خلق تفسيراً كاملاً لميكانيك الكم ضمن روحية افكار بوهر وجنباها أي غموض او ذاتية. وقد لعب الجدول الذي ندرسه هنا دوراً حاسماً في ايجاد مثل هذا التفسير.

وبعيد عن انشاء تفسير متماسك لميكانيك الكم بصيغة (أرثودوكسية) فقد كان للمرحلة الثالثة من جدول اينشتاين - بوهر نتائج اخرى. فعدد من العلماء المهتمين بافكار اينشتاين حاولوا العودة إلى النمط الكلاسيكي للوصف على قاعدة الفكرة القائلة بأن (البارامترات المخفية) تتضمن عناصر من الواقع (بتعبير اينشتاين) وهي المسؤولة عن الطبيعة الاستاتيكية للظواهر المجهرية، ومن بين هذه المحاولات، كان افضلها أعمال ديفيد بوهميم، انظر [٢٢]، ص - ص ٣٥٩ - ٣٨١، ٢٣، ص - ص ١٣٩ - ١٦٨، ٢٤، ص - ص ٩٣ - ١٠٩] اضافة الى (٢٥). جميع هذه المحاولات عارضت نظرية فون نيومان (أومن الأفضل ان نقول بحته) عن استحالة دمج نتائج ميكانيك الكم مع (البارامترات المخفية) [٢٦، ص - ص ٣٢٣ - ٣٢٧].

وطالما ان اينشتاين وبوهر لم يساهما في المراحل الأخيرة من المناقشة، فلن نحللها تفصيلاً. ومن المهم الاشارة إلى حقيقة ان (٢٥) عاماً من المساعي في هذا الاتجاه لم تفض إلى نجاحات ملموسة - بل على العكس، فقد توصل ج. س. بيل إلى نتائج هامة [٢٧، ص - ص ١٩٥ - ٢٠١، ٢٨، ص - ص ٤٤٧ - ٤٥٢]، فدعمه بتجارب، عززت موقف ميكانيك الكم. ويمكن الاشارة إلى ان جميع المحاولات لتحقيق برنامج اينشتاين حول تنقيح ميكانيك الكم كانت مبنية على اسس كلاسيكية وتم اثبات عدم جدواها. ولكن ماهو موقف اينشتاين ازاءها؟ فمن جانب يمكن القول انها قد نتجت بشكل واضح (وربما واضح جداً) من برنامج اينشتاين للأعوام ١٩٣٥ و ١٩٤٩ ومن تصور الواقع الذي يصور الوظائف

المستمرة في المكان - الزمان . ومن جانب آخر . بيد ان مجمل الموضوع هو عدم وجود (جانب آخر) بصرف النظر عن عدم جدواه هو ما يبدو واضحاً الآن ، فقد كان موقف اينشتاين ازاء هذه المحاولات حذراً بما فيه الكفاية [٢٩ ، ص ٢٥٨] . والسبب في هذا الموقف ربما يرجع إلى ان جميع المحاولات لتعديل نظرية الكم كانت (ولا تزال) تعتمد على المادية التجريبية التي تكيفوا معها ، بمعنى ، « تحت ضغط لا يقاوم من الحقائق » ، أكثر من اعتمادها على مبدأ تعميم واسع . ولكن هذا هو مجرد افتراض لنا .

والآن وبعد ان درسنا مجمل سياق الجدل وحددنا المبادئ التي تعتمد عليها اراء المساهمين الرئيسيين فيه ، اينشتاين وبوهر فقد حان الوقت لتلخيص - اذا كان بالامكان القيام بذلك بشكل عام - الحجج المستمرة إلى ايامنا هذه .

يمكن التأكيد في الغالب على ان الفيزياء قد تطورت خلال نصف قرن (منذ ١٩٣٥) على المسار الذي اقترحه بوهر ، وتم التوصل إلى نتائج جدية ضمن هذا التناول . وظهر بشكل طبيعي ان اينشتاين كان خاطئاً في جدله مع بوهر . ولكن مفهوم (الخطأ) لم يعد مفهوماً مقولانياً إثر تطبيقه من قبل مفكر وعالم مثل اينشتاين . ان تأثير اينشتاين على مجمل الفيزياء المعاصرة كان عميقاً جداً مما يجعلنا ملزمين بالبحث عن تعريف آخر لدوره في المناقشة .

وربما كانت هذه الحقيقة مفهومة من قبل بوهر الخصم الرئيسي لاينشتاين ، ففي عمله عن تاريخ الجدل ، علق على الدور الاساسي لنقد اينشتاين في صياغة تفسير متين ومتناسك لميكانيك الكم ، فقد استوعب اينشتاين جوهر النظرية الجديدة وحدد نقاطها الاساسية التي تختلف عن الافتراضات المنشأة في النظرة العلمية للعالم ، لهذا السبب فان نقده قد حدد الحاجة إلى التحليل التفصيلي للنظرية وتفسيرها . وجوهرياً فإن ذلك يعني أن ما كان مطلوباً هوليس مجرد معارضة تلك المبادئ التي تمثل أساساً للنظرية الفيزيائية لاينشتاين عن العالم ، وانما ايضاً معارضة اعادة تفسير هذه المبادئ في حالة ادراكية جديدة .

دعونا ندرس مرة ثانية المعتقدات الأساسية لنظرية اينشتاين عن العالم في ضوء تنقيحها في ميكانيك الكم، وبتعبير اوسع، في الفيزياء الحديثة. ان الحاجة الى الوضوح والتمايز في المعرفة، المهمة جداً بالنسبة للاينشتاين، قد تحولت إلى الحاجة إلى امكانية التفكير غير المتناقض حول النتائج العلمية لتفاعل مواضيع الكم، كما هو مثبت في مبدأ التسمامية لبوهر، وقد طبقت هذه الحاجة على العالم المجهرى، وادى إلى تحقيق تفسير متماسك لميكانيك الكم، كما اشير سابقاً، في سياق الجدل مع اينشتاين. وكان مفهوم الواقع قد جرى تنقيحه بطريقة مشابهة. فالواقع لم يختف من ميكانيك الكم ولم يستبدل بتصوير (الظاهرة الداخلية)، فقد جرى فهمه بطريقة تختلف عن الفيزياء الكلاسيكية. ان مكان الواقع كمجموعة من الاحداث قد اعتبر واقع الامكانات الكامنة. ويمكن للمرء ان يرجع هنا إلى (الواقع كما هو) بلغة الاستقلال لمجموعة من الامكانات الكامنة عن دور المراقبة، ولكن ليس بالطبع بلغة الاستقلال عن الحالة الماكرونية أو حتى الميكرونية المحيطة.

بيد ان التأثير الأكبر على الفيزياء قد حدث بواسطة تصور اينشتاين عن وحدة العالم. فعند اينشتاين نفسه كان لهذا التصور وجهان، انطولوجي وابستمولوجي. الجانب الانطولوجي ضُمن في فكرة الاساس الواحد للعالم، والجانب الابستمولوجي، في الحاجة إلى البحث عن مبدأ موحد عام يمكن من خلاله استنباط الحالات الخاصة.

وقد نُقح هذا التصور ايضاً، ويأمل الآن بضعة علماء في ايجاد مبدأ عام، والبعض منهم يأمل ان يقوم بذلك عن طريق الخيال الطائر، ولكن البحث عن الوحدة هو واحد من اهم القوى المحركة للعلم الحديث.

ان الرغبة الاساسية للفيزياء هي ايجاد الوحدة من خلال التجربة اكثر من رغبتها في صياغة مبدأ عام كابتكار حر للعقل. ويمكن ايضاً ان نجد اثراً لهذه الفكرة عن الوحدة في تصورات بوهر عن كلية ميكانيك الكم وفي جميع

المحاولات لانشاء نظرية موحدة للجسيمات الأولية وتفاعلاتها . وترجع ليس فقط
الوجهة العامة في البحث بل ايضاً العديد من تفاصيل النظريات إلى افكار
اينشتاين، مثل - لاختية المعادلات الاساسية، الدور الاساسي لمبدأ الثابتية،
الجسيمة - كحلول للمعادلات اللاخطية، وغيرها .

اينشتاين أسس الفيزياء الحديثة «المادية الديالكتيكية»

غدت النظرية النسبية وميكانيك الكم، احجار الزاوية للفيزياء الحديثة او غير الكلاسيكية، بعد مسيرة طويلة في تطور علم الفيزياء في القرن العشرين. انهما النظريتان الاساسيتان للعلم، وهما لا يقللان من شأن مفاهيم ومبادئ نظرية الفيزياء الكلاسيكية السائدة آنذاك، بالرغم من ارتباط هذه المفاهيم والمبادئ بالفيزياء الكلاسيكية.

وقد احدثت الفكرة القائلة بان مسألة الطبيعة الاساسية للنظريات الفيزيائية، يجب ان تصاغ، وان تُحل اليوم، بطريقة تختلف عما كانت عليه في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في علم الطبيعة، ثورة في العلم الكلاسيكي، الذي تعتبر مبادئه الاساسية ومفاهيمه، غير قابلة للتغير، بنظر نيوتن، ماكس ويل، كيلفن وآخرين من ممثلي الفيزياء الكلاسيكية.

وهذا ما تم التعبير عنه لأول مرة، بلغة النظرية النسبية لأينشتاين، (ونعني النظرية النسبية الخاصة والنظرية النسبية العامة اللتان تم انجازهما في اواخر العقد

الأول من القرن العشرين) وفيما بعد، في مفاهيم ومبادئ ميكانيك الكم (التي تم انجازها في اواخر العشرينات) من قبل نيلز بوهـر.

ان الفيزياء، باعتبارها علماً للطبيعة بشكل عام، تؤمن بان من اولى مهامها، وبالتعبير المادي، ان تعكس الطبيعة كما هي، دون اية اضافات اعتباطية من قبل العقل المُدرِك. هذه الروح التعميمية لعلم الطبيعة، كانت السبب الذي جعل العلماء البارزين، غير مباليين بالديالكتيك، في الوقت الذي يطبقون فيه وبدون وعيٍ منهم مبادئه وافكاره، في اكتشاف القوانين الجديدة للطبيعة، وفي صياغة نظريات علمية حديثة. وبضمنها النظريات الاساسية.

قال انجلز بعد اكتشاف القانون الدوري لمندليف (من خلال التطبيق - غير الواعي - لقانون هيغل، بصدد التحول الكمي إلى نوعي، توصل مندليف إلى انجاز علمي) [١، ص ٦٨]. ويمكن ايضاً ان نُطبق نفس القول على مبدعي النظرية النسبية ونظرية الكم، وهذا هو موضوع - بشكل اوبأخر - هذه الدراسة فمثلما اثبت لينين، بان الثورة الأخيرة في علم الطبيعة، قد جمعت عضويّاً، ومنذ خطواتها الأولى، بين الفيزياء الحالية وبين المادية الديالكتيكية.

ان التحولات من الفيزياء الكلاسيكية، إلى الفيزياء الحديثة، وقبلها، من الفلسفة الطبيعية للعصور القديمة والوسطى إلى الفيزياء الكلاسيكية، كانت تمثل ثورات علمية مرتبطة بشكل وثيق بالثورات التي حصلت في الفلسفة. وتمثل الثورة في الفيزياء «المقصود هنا العلم عموماً» في التحول الذي حصل في محتواها النظري، الذي حطم وانهى اسسها القديمة، بمعنى، انهاء مجموعة مبادئها ومفاهيمها الاساسية، اضافة إلى طرائق الادراك المألوفة واسلوب التفكير. وايجاد اسسٍ جديدة، وطرائق جديدة للادراك واسلوباً جديداً للفكر.

وبخلاف فلسفة العصور القديمة والقرون الوسطى، فان الادراك الفلسفي وعلم الطبيعة للعصر الحديث، يرفضان فكرة القيم الفلسفية والعلمية الثابتة وغير القابلة للتغيير، المتجذرة في الوعي العام.

واصبحت الفيزياء علماً تجريبياً، اندمج فيها الادراك الحسي مع التفكير النظري، وتوحدت الطرائق التجريدية مع الرياضيات العلمية. ولم تعد النتائج التجريبية توصف بأنها تصورات الحس المشترك، بل فسرت من قبل المفاهيم الحديثة للنظرية العلمية بأنها بعيدة عن المعطيات الحسية من ناحية محتواها وعلاقتها المتبادلة.

لقد دخلت فكرة التطور إلى علوم الطبيعة من خلال الفلسفة الحديثة، وان يكن بشكل أحادي الجانب ومحدد: فالشيء الملازم للفيزياء الكلاسيكية هو اقتصار نظريتها على ميكانيك نيوتن، في حين يوجد ثمة تغير هام في روح الادراك العلمي واسلوب التفكير اذا ما قارنا علم الطبيعة في العصور القديمة مع العصر الحديث.

ان فكرة تطور الطبيعة ومعرفة الطبيعة، فكرة التطور بكل كمالها وعمقها، اي الديالكتيك تدخل في جميع فروع ومساحات الفيزياء الحديثة وبضمنها أسس الصرح النظري للعلم، ان الفيزياء الحديثة هي من حيث المبدأ علم موحد، يشتمل على النظريات الأساسية المرتبطة من ناحية الأصل، والتي تشكل لولباً تصاعدياً مرتبطاً بتطور الحضارة الانسانية، التكنولوجيا، الصناعة والمجتمع ككسل، وفي الفيزياء الحديثة تم وصف النتائج التجريبية بلغة الفيزياء الكلاسيكية، لكنها فسرت بلغة النظريات غير الكلاسيكية. وفي عهدنا هذا، فان روح الادراك العلمي هي روح المادية الديالكتيكية.

ان الفيزياء، تاريخها ونظرياتها، وخصوصاً الحديثة منها، هي بمثابة الحقل الذي ينبت فيه جوهر الديالكتيك بأشكال مختلفة ومتنوعة. فالديالكتيك مثلما يقول لينين هو نظرية (كيف تكون الاضداد، وكيف يمكن ان تتطابق - تحت اية ظروف تتطابق، وتتحول من واحدة إلى اخرى، لماذا يكون على العقل البشري ان يفهم هذه الاضداد على انها حيّة، مشروطة، متحركة، تتحول من واحدة إلى اخرى، وليست، ميتة، جامدة) [٢، ص ١٠٩].

لقد اعتبر ممثلو الفيزياء الكلاسيكية البارزون ان المهمة الاساسية والسامية للعلم، هي اكتشاف القوانين الثابتة اللا متغيرة للطبيعة، مؤمنين بان هذه القوانين هي اساس علم الطبيعة، فاعتقدوا بان ميكانيك نيوتن قد شكل مثل هذا الاساس، وان تطور الفيزياء بعد نيوتن يبدو بالنسبة لهم نوعاً من الاختصار او التكتيف لما كان يُعرف، بشكل اوبأخر، بفرضيات ونماذج الميكانيك الكلاسيكي. والحقيقة، ان تطور علم الفيزياء، اي تطور نظرياته الاساسية في المقام الأول، لم يكن بأي حال من الأحوال، اختصاراً لمحتواه النظري على اسس الميكانيك الكلاسيكي. ونجد اثباتاً كافياً على ذلك في تطور الفيزياء الكلاسيكية، وبكلمات اخرى في نظرية ماكس ويل الكهر ومغناطيسية.

لقد درس جيمس كلارك ماكس ويل، النتائج التجريبية لفارادي حول الكهرباء والمغناطيس في كليتها الاجالية، وعبر عنها بلغة التجريد الرياضي، فأدرك وجود تناقض كبير بين المعادلات المستنبطة. ولازالة هذا التناقض، استبدل ماكس ويل احدى التعابير الرياضية بواحدة اخرى، دون اي اثبات او برهان (وهذا ما حصل فيما بعد)، وهكذا ولدت النظرية الكهر ومغناطيسية. كتب ماكس بورن عن هذا التطور بان الخطوة الحاسمة لماكس ويل كانت (سيره على اساس النماذج الميكانيكية للأثير اكثر من اسباب الكمال الرياضي او للجمال، او لأي شيء آخر يُمكن ان يوصف بالسجية) [٣، ص ١٠]. ويمكن الاضافة الى هذا القول ان السجية والديالكتيك كانتا دوماً تسيران جنباً إلى جنب. ان الخطوة التي قام بها ماكس ويل قد دلت جوهرياً على انه دمج اضداداً مثل الكهرباء والمغناطيسية ضمن وحدة واحدة.

ان الثورة العلمية التي ادت إلى ظهور الفيزياء غير الكلاسيكية، تختلف جذرياً في طبيعتها ونتائجها الادراكية، عن الثورة التي انتجت الفيزياء والميكانيك الكلاسيكي. ان ما هو جوهرى بالنسبة للفيزياء الحديثة ليس مجرد اكتشاف قوانين الظواهر ضمن نظام مادي معين، او ضمن نطاق علاقاتها الداخلية. انها تهتم

بإيجاد نوايس التحول من القوانين التي تغطي مجموعة معينة من الظواهر إلى قوانين أكثر عمقاً وشمولية للظواهر الجديدة والأكثر اتساعاً (وقد تنامت هذه المهمة بشكل أوبآخر في مرحلة معينة من تطور الفيزياء). وهذا هو بالواقع النمط الديقالكيتيكي الذي انبثقت من خلاله النظريتان النسبية العامة والخاصة، وعززتا نفسيهما. إضافة إلى ميكانيك الكم، وكهروديناميك الكم. وهذا هو الطريق الذي تطورت عبره نظرية الجسيمات الأولية والفيزياء الفلكية.

وعند اكتشافه للنظرية النسبية، جعل اينشتاين مرتكز المفهوم الجديد لأسس الفيزياء، يختلف تماماً عن المرتكز الذي كان يجري العمل به في علم الفيزياء، بدءاً من نيوتن وإلى نهاية القرن التاسع عشر.

لقد قوضت النظرية النسبية الفكرة الدوغمائية حول ثبات المبادئ الأساسية ومفاهيم علم الفيزياء التي كانت سائدة تماماً قبل اينشتاين. ان نشوء هذه النظرية على الحد الفاصل بين الميكانيك الكلاسيكي والكهروديناميك الكلاسيكي، والتي نتجت من حل اينشتاين للتناقض بينهما، هو مثال رائع على فعالية قانون وحدة وصراع الاضداد.

ولا يمكن ان يُفسر اصل ومحتوى النظرية النسبية العامة دون الاستعانة بالديقالكيتيكي.

لقد حدد اينشتاين في «مذكراته» بأن ماكس ويل وهيرتز قد حطوا الايمان بالميكانيك، كقاعدة نهائية لمجمل التفكير الفيزيائي. بالرغم من انها ومن خلال تفكيرهما الواعي، ملتصقان بالميكانيك بصفته القاعدة المحكمة والمتينة للفيزياء، وواصل ليقول (لقد كان ارنست ماخ، في «تاريخ الميكانيك» هو الذي هز ذلك الايمان الدوغماتي. . انني أرى عظمة ماخ في ريبته الخالصة واستقلالته. بيد أني عندما كنت شاباً، تأثرت بشكل كبير بالموقف المعرفي لماخ، هذا الموقف الذي يبدو لي اليوم غير مبرر جوهرياً، كونه لم يضع البناء الجوهري والطبيعة التأملية للتفكير، وخصوصاً التفكير العلمي، في المكان الصحيح [٤، ص ٢١].

والواقع ان اينشتاين، ومن خلال اكتشافه للنظرية النسبية، قد قوض اعمدة الثباتية وعدم التغير، والتطبيق اللامحدود لميكانيك نيوتن، مبرهنأ على نسبية قوانينه وفرضياته، ولكن يمكن ان نتغلب ونسيطر على المسائل الفلسفية للسمة النسبية للحقيقة العلمية، فقط، من خلال مواقع المادية الديالكتيكية. ولأن اينشتاين بعيد جداً عن الفلسفة الماركسية، فقد طبق قوانين الديالكتيك لادراك العالم المادي بدون وعي منه وبشكل ذاتي، عند صياغته للنظرية النسبية، وهذا ما يفسر، في التحليل النهائي، تعصبه وهوشاب لتعاليم ماخ الفلسفية، التي كان يراها، مناهضة للفيزيائيين الدوغمائيين المؤمنين بميكانيك نيوتن.

واخيراً، تخلى اينشتاين عن فلسفة ماخ كلياً، بحلول عام ١٩٢٢، فحتى عام ١٩١٠ كان ماخ لا يزال متفقاً مع النظرية النسبية، لكنه سرعان ما عارضها من حيث المبدأ، اضافة إلى رفضه فكرة تعميمها من قبل اينشتاين، وهكذا، وفي اثناء مناقشة النظرية النسبية من قبل الجمعية الفلسفية الفرنسية في باريس عام ١٩٢٢، اجاب اينشتاين عن موقفه إزاء ماخ: (ان نظام ماخ، يدرس العلاقات المتحققة بين النتائج التجريبية، واجمالي هذه العلاقات، بالنسبة لماخ، هي العلم الدقيق والمضبوط للطبيعة، وهذه وجهة نظر نسبية، وبشكل عام، ان ما فعله ماخ هو فهرست وليس نظاماً. لقد كان ماخ ميكانيكياً جيداً، لكنه كان فيلسوفاً هزياً) [١١] (٥).

وبقينا، ان هذا بحد ذاته، تقييماً نقدياً لماخ كفيلسوف. لقد تمسك ماخ دوماً، وبخلاف معاصريه واتباعه، بنظريته عن المعرفة، ورفض الواقع الموضوعي للذات - وضع اينشتاين ملاحظات سلبية حول ذلك في العديد من المناسبات - والنظرية النسبية. وكما هو معروف جيداً، ان اينشتاين، إلى جانب صياغته

* - مقتبس من أوراق فريديريك هنريك (Zu einem Brief Albert Einsteins om Ernst Mach)

Physikalische Blätter (Mesbaeh- Baden), 1959 Haft 12.

للنظرية النسبية، كان واحداً من مؤسسي النظرية الحديثة للذرة. ولهذا يمكن ان يكون موقف ماخ من اكتشافات اينشتاين، دليلاً على عداء الوضعيين للفيزياء الحديثة، دليلاً على العجز الجوهري للوضعية، بان تكون فلسفة الفيزياء الحديثة. ومن المناسب هنا ان نستذكر كلمات لينين في هذا السياق حول العلم الحديث للذرة: (ان قابلية الذرة للانشطار، واستحالة نفاذها، وقابلية جميع اشكال المادة وحركتها للتحويل - كل هذا كان دائماً سنداً للمادية الديالكتيكية) [٧، ص ٢٨١]. وعلى نفس الشاكلة، فان المادية الديالكتيكية كانت تركز دائماً على تصور الوحدة السرمدية للمكان والزمان، وعلى الروابط العضوية بين المكان والزمان من جانب، وعلى حركة المادة من جانب آخر. ان الخط الفلسفي للنظرية النسبية وللفيزياء الحديثة ككل، ينسجم تماماً مع كلمات لينين (ان تغير التصورات البشرية عن الزمان والمكان، قلما يدحض الواقع الموضوعي لهذا وذاك، مثلما أن تغير المعارف العلمية عن بنية وأشكال حركة المادة لا يدحض الواقعية الموضوعية للعالم الخارجي) [٧، ص ١٧٥].

كل هذا يعتبر بمثابة مؤشرات لأسباب خيبة امل اينشتاين بوضعية ماخ. فلماذا تحدث عام ١٩٢٢ عن فلسفة ماخ بلغة تختلف عما كانت عليه في سنوات مبكرة؟. ان السبب الجلي، هو ان النظرية النسبية، قد تطورت بعكس مما يؤمن به بعض الفلاسفة البرجوازيين المعاصرين، وبالضد من مذهب الوضعيين عن المكان والزمان وليس على أساس هذا المذهب، مثلما تطورت النظريات الحديثة عن الذرة بالضد من الوضعية. لقد اثبتت المادية العفوية لهذا الفيزيائي العظيم، وتطبيقه غير الواعي للديالكتيك على اسس العلم، انها اقوى من «الفلسفة الهزيلة» لماخ. وعندما طور اينشتاين نظريته النسبية، استنكر انتقاد ماكس بلانك لوضعية ماخ، لكنه اتخذ فيما بعد نفس المواقف الفلسفية لمكتشف نظرية الكم. وقد اشار لينين إلى اينشتاين واصفاً اياه بـ (مُصلح عظيم في علم الطبيعة) مؤكداً على ان نظريته (قد لفتت لها انظار عدد واسع من المفكرين البرجوازيين في جميع

البلدان) وان ذلك (لا ينطبق على اينشتاين فقط، بل على عدد، ان لم يكن الأغلبية، من المصلحين العظام لعلم الطبيعة منذ أواخر القرن التاسع عشر [٨، ص ٢٣٣].

وهكذا يكون من العدل تماماً، ان نحدد بوضوح، ان المصلحين العظام لعلم الطبيعة، بلانك واينشتاين، ومن خلال نظرياتهم التي اكتشفوها، قد عارضوا الوضعية كفلسفة للفيزياء الحديثة.

حول العلاقة بين اينشتاين وماخ

اثرت النظريات الفيزيائية الاساسية للقرن العشرين على المناخ الفكري للعصر بشكل كبير . ولا تزال المساجلات المعرفية والفلسفية - المنهجية التي اثارها النظرية النسبية وميكانيك الكم ، من خلال معالجتها لأمر معقدة ، مستمرة حتى ايامنا هذه . ان ادراك القيمة الحضارية للنظريات الفيزيائية الحديثة ، وتأثيرها المتنامي على الادراك (Cognition) والحياة الاجتماعية ، قد ادبا إلى ظهور حاجة ماسة لتوضيح المحتوى الفلسفي للتصورات (Conceptions) غير الكلاسيكية بصدد الواقع ، السببية ، المكان والزمان ، اضافة إلى الحاجة الملحة لفهم : ماهية الأفكار الفلسفية التي مهدت لظهور النظرية النسبية وميكانيك الكم . هل توجد ثمة صلة بين المفاهيم الفلسفية التي كانت سائدة في الوقت الذي تم فيه صياغة النظرية الجديدة وفرضياتها الاساسية؟

والمقالة الحالية تقترح ردوداً محددة للأسئلة المطروحة آنفاً ، من خلال بحثها في جانب واحد وهو ، علاقة الوضعية (Positivism) الفلسفية ، عموماً ، والوضعية الماخية بشكل خاص ، بنظرية اينشتاين النسبية . ولن نتطرق إلى مجمل المقدمات

الفلسفية للنظرية النسبية، وتأثير الآراء الفلسفية - المنهجية المسيطرة على البيئة الثقافية التي جرت فيها الثورة العلمية على تطوير المعرفة العلمية.

ان النظريات الفيزيائية المعاصرة، يمكن ان تُفهم فقط في كليتها الاجمالية، اذا ما اخذنا تاريخ ظهورها وتطورها الأولي، اضافة إلى الدور الذي لعبته المدارس الفلسفية المختلفة في التأثير على صياغة وحل المسائل الفيزيائية الخاصة التي كان لها نتائج اساسية. وتكمن حقيقة هذا الطرح، في ان اية نظرية علمية اساسية (تُنكر) نظام التصورات المتحقق عن العالم، ستواجه الحاجة لأن تقوم هي نفسها بجميع المهام، وبضمنها تلك المهام الرئيسية في نطاق المعرفة المعطاة مع جميع نتائجها، التي تم انجازها من قبل النظام المعرفي السابق. وعليه سيكون على الاسس الفلسفية العامة للنظرية الجديدة ان تجيب عن الاسئلة التالية: ما هو مقدار ثبات وعمق مبادئها؟ هل ولدت هذه المبادئ التي تشكل الفلسفة جوهرها من رحم الثقافة السابقة؟ هل تتمكن النظرية الجديدة من تعميق لا المعرفة الفيزيائية فقط، بل المعرفة الفلسفية ايضاً؟ وهكذا كان على النظرية النسبية ايضاً، ان تواجه كل هذه المسائل. وبصرف النظر عن المحتوى الفيزيائي للنظرية الجديدة، فان حل المهام الأنفة الذكر يستغرق وقتاً اطول. ان ادراك المحتوى الفيزيائي العميق للنظرية النسبية، وتأثيرها على الفروع الأخرى لعلم الطبيعة بشكل عام، وعلى الفيزياء خصوصاً قد اجبراً ممثلي معظم الأنظمة الفلسفية على محاولة (استيعاب) النظرية النسبية من خلال اثباتهم بان افكارها قد نتجت عن اعمال كانط وهيوم، اوبعض الفلاسفة الآخرين. وتحتل مركز الصدارة هنا، مسألة الدور الايديولوجي لماخ. وبدون التطرق إلى مسببات هذه الظاهرة، دعونا نحدد ان المقدمات الفلسفية للنظرية الجديدة بصدد المكان والزمان والجاذبية، من وجهة نظرنا، لا يمكن شرحها بوضوح إلا من خلال تحليل الحالة المعرفية للعلم عشية القرن العشرين، التي تم خلالها صياغة النظرية النسبية الخاصة.

لقد ظهرت حالة ادراكية جديدة في ذلك الوقت، غدا فيها التحليل المعرفي للنظام الاساسي الذي يشكل مفاهيم المعرفة الفيزيائية جزءاً من نشاط العالم. ولم تنشأ هذه الحالة بين عشية وضحاها، بالنسبة للفيزيائيين الذين اظهروا اهتماماً بالأسس الفلسفية لميادينهم المعرفية قبل النظرية النسبية. لكن هذا الاهتمام كان في الغالب عرضياً (episodic) بطبيعته، ومعتمداً على العديد من الظروف المصاحبة. ولم تكن ثمة صلة مباشرة وواضحة بين الدراسات الفيزيائية والاستنتاج الفلسفي (Philosophical ratiocination). ثم تغيرت الحالة جوهرياً في اواخر القرن التاسع عشر ووائل القرن العشرين. وكما اشار اينشتاين إلى «ان الصعوبات الحالية للعلم، تجبر الفيزيائي على الالتصاق بالفلسفة بدرجة أكبر من الاجيال السابقة» [١، ص ٢٧٩]. واعتماداً لا على صحة قول اينشتاين فقط، بل على تاريخ الفيزياء عموماً، يمكن ان نقول ان التعقد المتنامي في المعرفة الفيزيائية، والتغيرات في منزلة التجريدات المنطقية - الرياضية، الخ، قد نتجت ضمن الحاجة لحل المسائل الفلسفية - المنهجية. ان تحليل المسائل المعرفية كان امراً غير مألوف، وقد رافقته بطبيعة الحال نواقص عديدة. وقد سعى العلماء أيضاً، ضمن دفاعهم عن افكار جديدة، إلى ايجاد ماهية الأفكار الفلسفية التي تشكل اصل النظرية الجديدة، وعلاقة التصور الجديد بالاتجاهات الفلسفية التقليدية. وهذا لا يعني ان التفسيرات الفلسفية لم تنشأ إلا عند صياغة النظرية الفيزيائية، فقد بدأت المناقشات بصدور الافكار الفلسفية في تطوير المعرفة العلمية بوقت ابكر. بيد ان الوضع بات اكثر حدة وخطورة، عشية القرن الحالي، بفعل ازمة الاسس المنهجية للفيزياء.

في القرن التاسع عشر، تم استيعاب حقيقة ان المنهج الميكانيكي - الميتافيزيقي، السائد في اوساط علماء الطبيعة، لن يتمكن من المساعدة في حل المسائل المعرفية الجديدة في العلم. بعد ان تم اثبات ضيق ومحدودية المادية الميكانيكية. وبات واضحاً ان هناك حاجة ملحة لشكل ارقى من المادية، شكل

يطور المادية على اساس الديالكتيك . وهو ما قام به مؤسساً المادية الديالكتيكية .
ولكن بعيداً عن هذا الاتجاه العلمي في التغلب على الصعوبات التي تواجه
الشكل الطبيعي - الفلسفي للمسألة المحلولة ، ظهر اتجاه آخر ، مثالي - ذاتي ،
طوره اوغست كونت ، الذي اعلن الحرب مع اتباعه على الفلسفة بشكل عام ،
متبنياً وجهة نظر ظاهراتية للمعرفة المتحققة .

وخلال السنوات التي شهدت صياغة النظرية النسبية ، كانت افكار ماخ
واوستفالد واتباعهما واسعة الانتشار ، هي من حيث الجوهر مواصلة لخط بريكلي
وكونت . وفي معرض وصفه لتأثير افكار ماخ على اذهان معاصريه ، وبالأخص
علماء الطبيعة . كتب المؤرخ العلمي الامريكي جيرالد هولتون : « كان تأثير ماخ
هائلاً . . ف منذ عام ١٨٨٠ ، كانت افكاره ومواقفه الفلسفية تشكل جزءاً كبيراً من
المتاع الفكري لمعاصريه ، إلى درجة ان اينشتاين كان محقاً تماماً عند حديثه عن
اولئك الذين تحدوا افكار ماخ دون أن يعرفوها ، بانهم قد (تشرّبوا بحليب
امهاتهم)» [٢ ، ص ١٠٠] . دعونا ايضاً نقتبس في هذا السياق من مقالة اينشتاين
(أرنست ماخ) التي جاء فيها : « بالنسبة لي ، انا اعرف على الأقل ، اني قد
استفدت كثيراً من اعمال هيوم وماخ بشكل مباشر او غير مباشر» [٣ ، ص ١٠٢] .
لماذا حدث ذلك؟ ما هو الشيء الذي جذب اينشتاين في فلسفة ماخ؟
للإجابة عن هذه التساؤلات ، يجب ان يضع المرء في ذهنه العديد من الظروف
المتداخلة الهامة .

اولاً ، ان الفرضيات الاساسية للمادية الديالكتيكية ، التي تغلبت على
دوغمائية المادية الميتافيزيقية ، وبداية (apriorism) كانط ، والنسبية الفلسفية ، لم
تكن معروفة على نطاق واسع في اوساط علماء الطبيعة وذلك لأسباب مختلفة .
ثانياً ، كانت ثمة حاجة في العلم إلى موقف نقدي تجاه المبادئ الاساسية
للميكانيك الكلاسيكي ، التي انتحلت صفة المعتقدات (tenets) الفلسفية . لقد
احتاج العلماء إلى اسس معرفية واضحة للتنقيح النقدي للتصورات الفيزيائية

المتحقة . وهكذا فإن مؤلف ارنست ماخ (تاريخ الميكانيك) اصبح معروفاً على نطاق واسع ، وترافق اسم ماخ مع نقد اساس ميكانيك نيوتن .

ثالثاً، ان الفلاسفة والعلماء الذين ايدوا الفرضيات الاساسية لنظرية ماخ في المعرفة (دوهيم ، اوستفالد ، بوانكاريه ، وآخرون) قد قاموا فعلاً بتحديد نقاط الضعف في برهان الميكانيك الكلاسيكي . وخصوصاً عندما نجحوا في تحديد السمة اللا مطلقة للتصورات الكلاسيكية ، واستحالة فهم البرنامج الفلسفي الميكانيكي . واكدوا ايضاً استحالة شرح جميع الظواهر الطبيعية وفق اساس الميكانيك . وهذا هو السبب الذي اكسبهم الشرعية في الدوائر العلمية والفلسفية . لكن ، عند محاولتهم ايجاد اساليب جديدة لدراسة الواقع الموضوعي ، ولصياغة المتطلبات اللا كلاسيكية هيكل المعرفة العلمية ، سار جميع هؤلاء العلماء والفلاسفة باتجاه رفض السمة الموضوعية لقوانين الفيزياء . فعلى سبيل المثال ، كتب دوهيم :

«عندما اظهرت تفاهة هذه المساعي (المقصود هنا التفسير الميكانيكي لجميع ظواهر الطبيعة) ان مثل هذا التفسير كان مجرد وهم (chimera) ، اقتنع الفيزيائيون باستحالة الموائمة في وقت واحد بين ضرورات العقل واحتياجات التخيل ، وكان عليهم الاختيار ، وبشكل حاسم ، بان الذات قبل أي شيء آخر ، هي من تأمر العقل ، مولدة الحاجة إلى تفسير قوانين الطبيعة من خلال النظرية الفيزيائية ، لحماية وحدتها ودقتها» [٤ ، ص ١٥٢] .

وكما اشار ماكس بلانك ، وهو احد ابرز معارضي الوضعية ، ان ماخ «قد اخطأ هدفه عندما استهان بالصورة الفيزيائية للعالم بشكل عام مع الصورة الميكانيكية للعالم» [٥ ، ص ٢٧] . وضمن المناقشات التي نظمتها الجمعية الفلسفية الفرنسية حول النظرية النسبية ، اجاب اينشتاين عن سؤال الفيلسوف الشهير مايرسون ، حول موقفه من ماخ ، قائلاً «ان نظام ماخ يدرس العلاقات

المتحققة بين النتائج التجريبية، ومجمل هذه العلاقات يشكل علم الطبيعة الصحيح بالنسبة لماخ. وهي وجهة نظرسية، فما قام به ماخ عموماً، يمكن ان يسمى فهرستاً وليس نظاماً. ان ماخ ميكانيكي جيد، لكنه فيلسوف هزيل» [٦]، ص ١١١].

وكما اشار بصواب فردريك هنريك عندما كتب «ان هذا التقييم الماحق لماخ، الفيلسوف، من قبل اينشتاين. . يتطابق تماماً وربما حرفياً مع ملاحظات لينين في مؤلفه المادية ومذهب النقد التجريبي، حول ماخ والماخية» [٧]، ص ٥٦٤]. ونحن لا نعتقد ان هذا التطابق هو محض صدفة. فقد كان نقد اينشتاين منصباً بشكل جوهرى ضد الارتقاء بالحسية إلى حالة المطلق، التي تؤدي إلى المثالية الذاتية. لهذا لا يمكن للمرء ان يصف تقييم اينشتاين بمجرد مزاج، كما فعل هنريك في مقالته الأنفة الذكر: ان هذا التقييم قد نتج عن البرنامج العلمي الشامل لاينشتاين. لقد حلل اينشتاين في (سيرته الذاتية) عام ١٩٥٥ الافكار التي اوصلته إلى النظرية الجديدة عن المكان والزمان.

«ان انعكاسات من هذا النوع، قد اوضحت لي، بعد فترة قصيرة من عام ١٩٠٠، أي بعيد العمل الريادي لـ (بلانك)، انه لا الميكانيك ولا الثرموديناميك يستطيعان إلا في حالات محددة، الزعم بالدقة المضبوطة. وشيئاً فشيئاً يتست من امكانية اكتشاف القوانين الحقيقية بالاعتماد على الحقائق المعروفة. وكلما اكثر من محاولات، ازددت اقتناعاً ان اكتشاف المبدأ الاساسي الشامل، هو فقط القادر على ايصالنا إلى نتائج اكيدة. . وبعد عشر سنوات من التفكير، نتج هذا المبدأ من مفارقة (Paradox) كنت قد صادفتها وانا في سن السادسة عشرة: لوتابعت حزمة من الضوء بسرعة (س) (سرعة الضوء في الفراغ) فلا بد ان ارى مثل هذه الحزمة من الضوء بصفقتها مجالاً كهرومغناطيسياً متذبذباً فراغياً وفي حالة سكون. ولكن، لا يبدو ان هنالك شيئاً مثل هذا، سواء على اساس التجربة ام استناداً

إلى معادلات ماكس ويل . فلو حكمنا وجهة نظر مراقب كهذا ، لاتضح بالحدس ، منذ البداية ، ان كل شيء لا بد ان يحصل وفق القوانين ذاتها لمراقب كان في حالة سكون بالنسبة للأرض . .

«ويرى المرء ان هذه المفارقة ، تشتمل على اصل النظرية النسبية الخاصة . فاليوم يعرف الجميع ، ان مجمل المحاولات الهادفة إلى توضيح هذه المفارقة بشكل مرضٍ ، كانت محكومة بالفشل طالما ان بدئية (axiom) السمة المطلقة للزمان والتزامن ، كانت راسخة وبشكل غير مدرك في اللاوعي . ان فهم هذه المفارقة وسمتها العرضية ، ينطوي فعلاً على الحل لهذه المسألة» [٨ ، ص ٥٣] .

وسيفهم جميع مؤيدي الفرضيات الفلسفية - المنهجية لماخ ، ان نظرية الفيلسوف الفيني في المعرفة ، كانت هزيلة إلى درجة لا تمكنها من وضع حل ايجابي لمهمة اكتشاف المبدأ الاساسي الشامل . ولكن عملية انشاء ميكانيك جديدة كان قد سبقها طور هام ، وهو ادراك حقيقة ان نظام المعرفة الفيزيائية المتضمن لبديهية السمة المطلقة للزمان والتزامن ، كان اعتبارياً ، وغير مدعم بالحقائق بشكل واف . ان ادراك هذا الوضع ، حسب رأي اينشتاين ، سيعطي في الجوهر مفتاحاً لحل المسألة . ان نقد ماخ للمفاهيم الاساسية للميكانيك الكلاسيكي ، يمكن أن يساعد ، وخصوصاً في هذه المرحلة - على انشاء تصورات كلاسيكية غير مدعمة بالتجربة عن الزمان والحركة والمكان - وبالضد من العديد من علماء الطبيعة ذوي الأفكار الوضعية ، آمن اينشتاين بان انجازات العلماء في ميدان المعرفة ، لها اهمية وقيمة بالغة . وقد انعكس هذا في نعيه لماخ عام ١٩١٦ .

ان لهذه المفاهيم «نفوذ علينا ، بحيث ننسى مصدرها الأصلي ، ونأخذها كشيء ثابت غير قابل للتغير . ولهذا تأخذ صفة (ضرورات التفكير) ، بدئية معطاة لنا) الخ . لقد كان طريق التقدم العلمي معاقاً تماماً بهذه الاخطاء لفترة زمنية طويلة . ولهذا فهي ليست مزحة تافهة على الاطلاق ، عندما ننشغل بتحليل المفاهيم القديمة ، واظهار على اية ظروف تعتمد جدارتها وفائدتها ، وكيف انبثقت

بشكل منفرد من النتائج التجريبية . وبذلك يتلشى نفوذها علينا إلى حد كبير .
وتُحذف، إذا لم يكن في المستطاع إيجاد مبرر منطقي لها، أو تُصحح، إذا لم يكن
انسجامها مع المواضيع المعطاة قد تم وفقاً لدراسة متأنية، أو تُبدل، إذا كان في
الامكان انشاء نظام جديد ربما نفضله لبعض الأسباب» [٣، ص ١٠٢].

وبرغم حقيقة وضوح الروح المعادية للتجريبية في تعابير اينشتاين، فإن
انصار ماخ بدأوا بنشر فكرة مفادها ان النظرية الجديدة عن المكان والزمان قد
أستقيت من نظرية الفيلسوف الفيني عن المعرفة . لهذا كتب هانزرشينباخ، وهو
احد ابرز ممثلي الوضعية الجديدة (neopositivism) ما يلي: «انها الفلسفة التجريبية
(empiricism)، اذن، التي تنتمي اليها نسبية اينشتاين . . فعلى الرغم من
الادوات الرياضية الهائلة، فإن نظرية اينشتاين حول المكان والزمان هي انتصار
للتجريبية، في حقل كان يعتبر دوماً مضماراً لاكتشاف العقل الخالص» [٨،
ص ٣٠٩ - ٣١٠].

ان الفكرة القائلة، ان النظرية النسبية هي انجاز ملموس لمبادئ التجريبية.
ليست جديدة، فقد تبناها اتباع ماخ بشكل مبكر منذ العشرينات، برغم الموقف
التشككي لماخ تجاه النظرية النسبية . كتب الفيلسوف بيتزولد في مقال له بعنوان
«علاقة عالم الافكار لماخ بالنظرية النسبية» والذي نشر كملحق للطبعة السابعة
لمؤلف ماخ (تاريخ الميكانيك) ما يلي: «ان النظرية النسبية لا تتعارض مع
وجهة نظر ماخ عن العالم، في أي من فرضياتها الهامة . انها الثمرة الذهبية لشجرتة
العميقة الجذور والواسعة للتفكير . . » [اقتبست من ٩، ص ٥١٧].

وطور عالم الرياضيات . أ. أ. فاسيليف، افكاراً مشابهة في مؤلفه
(المكان، الزمان، الحركة) عام ١٩٢٢، فقد حاول اثبات ان «نظرية اينشتاين عن
النسبية قد بُنيت على مقدمات معرفية تتطابق . . مع افكار ماخ، ولكن لكي تُبنى
هذه النظرية وتُقبل من اغلبية الدارسين والمفكرين في زمننا، ثمة مطلبان يجب
توفرهما: الأول، ان تقييم الافكار حول المكان، يجب ان يُغير الرأي المهيمن حول

العلاقة بين الفيزياء والهندسة، بين المكان والظواهر التي تحدث فيه، الرأي الذي يعتبر المكان (غرفاً للإيجار) (rooms to let)، حسب عبارة «ويل» الظريفة. والثاني، يجب اخذ الملاحظتين المتميزتين عن المكان الثلاثي الابعاد والزمان ذي البعد الواحد، من خلال المفهوم العام عن العالم، كمجموعة للاحداث ذات اربعة ابعاد. وقد اصبح المطلب الأول ممكناً بواسطة الهندسة اللا اقليدية، والمطلب الثاني من خلال تطور التجربة الفيزيائية» [١٠، ص ٦٣].

لقد كان فاسيليف واحداً من اوائل المطورين لفكرة ان الفيلسوف الانجليزي جورج بريكلي هو البشير الايديولوجي والفلسفي للنظرية النسبية. فحسب رأيه «ان الانجاز الخالد لبريكلي، كان معارضته للواقع الخارجي للمكان، وفهمه للأخير بأنه مجرد نتيجة ذاتية كلياً لانحداد الاحاسيس المرئية والملموسة والحركية» [١٠، ص ٥٥].

لقد لقي هذا النوع من الاحكام حول العلاقة بين النظرية النسبية والمذهب الفلسفي لماخ رواجاً ايضاً في الفلسفة الغربية المعاصرة للعلم، وكذلك في الأدب الفيزيائي. فنرى الفيزيائي الانجليزي د. و. شيما في مؤلفه (الاسس الفيزيائية للنسبية العامة) يبجل وجهات نظر بريكلي وماخ عن الجاذبية وعن طبيعة قوى العطالة - القصور الذاتي، في محاولة منه لاثبات ان لهما تأثيراً حاسماً في صياغة النظرية النسبية العامة. ان المبادئ الأساسية لنقد المكان المطلق لبريكلي وماخ هي متطابقة فعلاً، اضافة إلى وجود مسائل عديدة مشتركة في مواقفها الفلسفية. ويتضح ذلك جوهرياً في مؤلف لينين (المادية ومذهب النقد التجريبي). وقد كان شيما صائباً في قوله ان «بريكلي.. قد عارض فكرة المكان المطلق لأنه غير منظور» [١١، ص ١٧].

ومواصلة منه في تحليل المقدمات الفلسفية للنظرية الجديدة عن الجاذبية في فصل (مبدأ ماخ) كتب شيما: «ان معالجة ماخ لمسألة العطالة كان مجرد تطوير بسيط لما انجزه بريكلي، وهو عمل هام جداً، لانه حفز على اعادة مناقشة المسألة

في الوقت الذي كانت فيه شرعية آراء نيوتن لا جدال فيها. ان انتقادات ماخ لقوانين نيوتن عن الحركة كانت اكثر تفصيلاً من انتقادات بريكلي، ولكن بخصوص قوة الطرد المركزي كان رأيهما واحداً [١١، ص ١٨].

والحق لم يكن امراً بسيطاً ماوجهه ماخ من انتقاد إلى الفرضيات الاساسية لنظرية الجاذبية لنيوتن. وشيها على حق تماماً في هذه النقطة. وهو ايضاً على حق في قوله ان نقد ماخ للمذهب نيوتن كان اعمق من نقد بريكلي. غير ان هذا العمق كان مرده إلى حجج ماخ الفيزيائية لا إلى حججه الفلسفية.

ومن هذه الناحية يتضح ان مبدأ ماخ الذي لعب دوراً محدداً في صياغة النظرية النسبية العامة باعتباره مبدأ فيزيائياً، لا يمكن ان يتطابق مع تأكيدات الفلسفية. ولهذا يكون من الصعب تقبل منطق شيما القائل ان المواقف الفلسفية لماخ وبريكلي، الزامية لجميع الفيزيائيين، لأنهما انتقدا مبادئ الميكانيك الكلاسيكي من مواقف معرفية متطابقة.

ان هذا المنطق يُسقط ويُدمر الصورة الحقيقية، لأنه اهمل تماماً مسألة الاختلافات في النقد لأسس الميكانيك الكلاسيكي، ومسألة ما اذا كانت الفرضيات الفلسفية للماخية، قد تم فهمها وادراكها في النظرية الجديدة، كما ان هذا المنطق ايضاً، ادراك عقدي العلاقات بين الفلسفة والفيزياء بشكل عام، وبين المعرفة المثالية - الذاتية لبريكلي وماخ والنظرية النسبية، بشكل خاص.

ويكمن جوهر هذه العلاقة في استخدام بعض سمات المعرفة المتحققة، في نقد المفاهيم القديمة عن المكان والزمان. هذه المعرفة التي قدمت افكاراً منهجية علمية تتجاوز بصورة افضل مع متطلبات تطور المعرفة الفيزيائية.

ان منطق الفلسفة الماخية، الذي غدا متيناً من الناحية التجريبية - الظاهرية، لا يمكن بجوهره ان يُستخدم بشكل حقيقي في بناء صرح جديد للنظرية الفيزيائية. وهذا ما اشار اليه اومليانوفسكي بصواب «ان ما جذب اينشتاين إلى ماخ، كان في الغالب، السمات النقدية في تحليله لميكانيك نيوتن،

اضافة الى حججه التي اعتبرها اينشتاين نقداً للدوغما الميكانيكية التي تعتمد عليها» [١٣، ص ٥٥].

وقد اشار الى هذه الحقيقة ايضاً، ب. ج. كوزنتسوف (١٤)، وكوبين (١٥). فقد كتب كوبين خصوصاً ان «تأثير افكار ماخ على علماء الطبيعة في تلك الفترة، لا يمكن انكاره. فحتى الفيزيائيون من امثال اينشتاين وبلانك، الذين تختلف وجهات نظرهم بدون شك عن افكار ماخ، اعترفوا مراراً بصلاتهم مع ماخ» [١٥، ص ١٣١]. وكان تفسيره لهذه الحقيقة هو «ان معارضة الميكانيكية قد جعلت من ماخ مناظلاً بارزاً في سبيل فيزياء جديدة» وهكذا رأى علماء الطبيعة ماخ باعتباره «ناقداً للصورة الميكانيكية للعالم» [١٥، ص ١٣١]. واخيراً، دعونا نحدد وجهة نظر ماكس بورن الذي كان - في ذات الوقت الذي ينتقد فيه بحدّة التصور الوضعي عن الادراك العلمي كونه لا عقلانياً ودوغماتياً - يؤمن بأن «هذا الرأي قد اثبت فعاليته من خلال دفعه للعلماء على اتخاذ موقف نقدي تجاه الافتراضات التقليدية، وانه قد ساعد في بناء النسبية ونظرية الكم» [١٦، ص ٤٩].

وهكذا فان فلسفة ماخ الظاهرية والتجريبية البحت، اصبحت غير قادرة على ان تكون اداة منهجية لتطوير اسس المفهوم الجديد عن المكان والزمان. ولكن من جانب آخر، وبفعل نقدها للمعرفة المتحققة، فقد سهلت من ادراك الحاجة إلى تحطيم الهياكل الطبيعية - الفلسفية الدوغماتية المستندة على الميكانيك الكلاسيكي*.

ولهذا السبب، ومن اجل فهم وتوضيح الموقف الايجابي للعديد من علماء الطبيعة تجاه الافكار الفلسفية لماخ، وبعيداً عن الحقائق التي ذكرت آنفاً، يجب

* - انظر ايضاً فصل «الخلاف حول المقدمات الفلسفية للنظرية النسبية معضلة ماخ - اينشتاين» في مؤلفنا (١٧).

الانتباه إلى ان اولئك الذين انشأوا الفيزياء الجديدة، لم يقوموا غالباً بتحليل المنظومة المفاهيمية للمعرفة الماخية، او بنقد الجوهر المثالي الذاتي لهذه الفلسفة. بل انهم على العكس، تقبلوا ماخ بصفته معارضاً للدوغماتية، وناقداً لأسس علم الطبيعة الكلاسيكي. كما كتب اوكلوف في مقالته عن نشوء وجهة نظر اينشتاين عن العالم «ان اينشتاين قد استقى العناصر الديالكتيكية في فلسفتي هيوم وماخ، واهمل اطارهما الفلسفي» [١٨، ص ١٨].

ثمة اوجه في تعاليم ماخ، يمكن ان يتوفر لها دون شك تفسير ديالكتيكي. ولكن كما سنرى لاحقاً، انها لا تعبر عن جوهر فلسفته. وخصوصاً فيما كتبه اينشتاين في نعيه لماخ المشار اليه سابقاً. فقد كتب اينشتاين ان الدور الايجابي للفيلسوف الفيني، يكمن في مهاجمته لأولئك الفلاسفة ذوي التفكير الميتافيزيقي (بالمعنى الهيجلي والديالكتيكي للمصطلح) والعلماء الذين «اعلنوا استحالة تغيير» العديد من مفاهيم الميكانيك [٣، ص ١٠٢]. وقد انجذب علماء الطبيعة ايضاً إلى فلسفة ماخ، من خلال استخدامه الواسع للنتائج الطبيعية - العلمية في انشاء نظامه، وتشديده على المشاكل الواقعية التي تواجه علم الفيزياء.

لهذا كان ماخ غير راضٍ عن صروح نيوتن حول المكان والزمان المطلقين، كونهما غير قادرين، كمبدأ، على المضي جنباً إلى جنب مع النتائج التجريبية. وحدد بشكل صائب، الطبيعة التجريبية للخواص الزمكانية: «ان الحركة يمكن ان تكون منتظمة نسبة إلى بعض الحركات الاخرى. ومسألة كون الحركة منتظمة بذاتها ليس لها اي معنى» [٩، ص ٢١٧].

وفي مكان آخر كتب ماخ: «يجب ان لا ننسى، عموماً، ان كل الأشياء مترابطة، واننا مع جميع افكارنا مجرد جزء صغير جداً من الطبيعة» [٩، ص ٢١٧].

لقد استوعب العلماء هذه (اللمحات) الديالكتيكية (في العديد من اعمال ماخ) لكونها غير مرتبطة بتأكيداته المثالية. ولكن هذه الافكار، الصحيحة بذاتها،

لم تلعب دوراً حاسماً في أعمال ماخ نفسه . فقد عبر عن جوهر آرائه بالكلمات التالية : « ان التأمل غير المتحيز يعلمنا ان اية حجة (تطبيقية) و(فكرية) تكون كافية حالما تستطيع افكارنا ان تستخرج تماماً الحقائق الحسية . وهذا الاستخراج هو بالتالي (هدف) و(غرض) الفيزياء . اما الذرات والقوى والقوانين فهي على العكس ، مجرد (وسائل) تُسهل عملية الاستخراج» [١٩ ، ص ٢٥٧] . وقال ايضاً : « ان وجهة نظري (تستبعد) تماماً جميع المسائل الميتافيزيقية (الفلسفية ك.خ) ، بغض النظر عما اذا كانت تعتبر غير قابلة للحل حالياً فقط ، او ليس لها معنى بشكل عام وإلى الأبد» [١٩ ، ص ٣٠٠] . « ان العالم (الحسي) ينتمي (في وقت واحد) إلى الميدانيين الفيزيائي والفكري» [١٩ ، ص ٢٥٣] .

ان اغلب علماء الطبيعة لم يفهموا التعابير المثالية الذاتية المقتبسة هنا ، على انها مترابطة عضوياً مع السمات النقدية للفلسفة الماخية . وعلى نحو مميّز ، فان وجهات نظر ماخ المثالية الذاتية عن عناصر العالم ، عن (مركبات الاحساسات) التي يتكون منها العالم ، الخ ، قد أهملت تماماً من قبل علماء الطبيعة . وأخيراً فقط (بُعِيد عام ١٩١٠) . وعندما احتلت مسألة المقدمات الفلسفية للنظرية النسبية مساحة واسعة من النقاش ، وظهرت اعمال خاصة تُعنى بالسمات المعرفية للنظرية النسبية ، بات على الفيزيائيين ان يدرسوا التفسيرات الفلسفية للمرحلة الجديد من تطور علم الفيزياء . ونتيجة لذلك فان اغلب العلماء ، ومن بينهم اينشتاين ، اتخذوا موقفاً سلبياً تجاه العلاقات بين النظرية النسبية والعديد من المدارس الفلسفية المثالية ، وبضمنها الماخية . فمؤسس النظرية النسبية انتقد ماخ «لعدم توضيحه بشكل صحيح الطبيعة التأملية والبنائية الجوهرية للتفكير وبالأخص التفكير العلمي» [٨ ، ص ٢١] .

لقد لامست ملاحظة اينشتاين هذه الضعف الجوهرية لنظرية ماخ عن المعرفة ، كونها خطة تجريبية في الفلسفة - تستخف بدور العنصر النظري والعقلاني والابداعي للدراك . لقد كان الموقف السلبي لماخ تجاه نتائج المعرفة المنطقية النظرية

هو الذي اوصله إلى فكرة عدم شرعية وبطلان النظرية النسبية . وعين السبب يقف وراء الموقف السلبي لماخ ، تجاه المذهب الذري (Atomism) ولتقييمه النظرية الذرية - الجزيئية كونها منهجاً للطبيعة ، وللذرات كونها سبت السحرة (witches sabbath] ٢٠ ، ص ١٠٤] . ولهذا فان محاولات تلامذة ماخ ، وبالأخص فرانك ، في اثبات ان الخطأ التاريخي قد حصل عندما ارتبط صراع ماخ ودوهيم في سبيل الفلسفة الوضعية مع كرههما للمذهب الذري . واعتبار انتصار المذهب الذري بمثابة هزيمة للوضعية غير مبرر تاريخياً . وبالصدفة لم يكن الاختلاف بين الافكار الفلسفية لماخ وبين الفيزياء الجديدة جلي تماماً ، كي يفهم حتى من قبل اتباع ماخ ، الأمر الذي حفز المحاولات لتحديث الماخية .

وهكذا فان ظهور النظرية النسبية لم يكن مرده فقط إلى اكتشاف العلماء لحقائق تجريبية يتعذر حشرها ضمن النمط المفاهيمي القديم ، بل كان مرده ايضاً إلى التحليل الفلسفي النقدي للعديد من المفاهيم البديهية والاساسية في آن واحد للميكانيك الكلاسيكي . ان تأثير الطموحات الوضعية ، ويضمونها افكار ماخ على بعض علماء الطبيعة ، يمكن ان يتجلى في حقيقة ان العديد من المدارس والطوائف الفلسفية المعاصرة في الغرب ، كانت لا عقلانية وبديهية وذاتية في طبيعتها ، تهمل انجازات ومكاسب علم الطبيعة ، وتتبنى موقفاً سلبياً او تشككياً (Skeptical) من تطور المعرفة العلمية .

وعند مناقشة تأثير بعض النظم الفلسفية على علماء الطبيعة ، أو علماء الاجتماع بخصوص نظرتهم إلى العالم ، لا بد ان نذكر ان الانظمة الفلسفية قد تم استيعابها وفهمها من قبل علماء الطبيعة بشكل مختلف عن علماء الاجتماع . اضافة إلى وجود اختلاف هام في تصور نفس الافكار المعرفية بين المنظرين وبين التجريبيين في الفيزياء . ان عملية تفسير الافكار الفلسفية من قبل علماء الطبيعة (كأي مختصين في مجالات اخرى من المعرفة) تعتمد بشكل مباشر على المهام التي يحلون في فترة معينة ، وعلى نظام التصنيف الذي يطبقونه . وبعد دراسته لمختلف

التفسيرات الفلسفية لنظريته ضمن العمل الذي كُرس عن اسهامه في العلم، وصف اينشتاين الحالة بالكلمات التالية: «ان العالم . يبدو واقعياً (realist) طالما يصف العالم بشكل مستقل عن فعل التصور. ومثالياً (idealist) طالما ينظر إلى المفاهيم والنظريات بصفاتها ابتكارات للروح البشرية (ليست مشتقة منطقياً من المعطيات التجريبية)، ووضعياً (positivist) طالما يعتبر ان مفاهيمه ونظرياته مؤهلة (فقط) للامتداد، وانها توفر عرضاً منطقياً للعلاقات بين التجارب الحسية. وربما يبدو (افلاطونياً) أو (فيثاغورياً) طالما يعتبر مسألة البساطة المنطقية شيئاً لا مفر منه، واداة مؤثرة في بحثه» [٨، ص ٦٨٩]. ان مواصفات الادراك الحسي للأفكار الفلسفية هي احدي اسباب الاختلاف في تفسير الفرضيات المتماثلة لهيغل مثلاً وكانط.

ويمكن ان نورد في هذا السياق الحقيقة التالية من تاريخ العلم. فمن المعروف ان اينشتاين كان قد حلل مسألة العلاقة المتبادلة بين العديد من المذاهب الفلسفية ونظرية المكان والزمان. وعبر بشكل خاص عن موقفٍ سلبي تجاه التفسير الكانطي للعلاقة المتبادلة بين المكان والزمان والمادة المتحركة في اطار العلم: «ان محاولة كانط لازالة الضعف (الاشارة هنا إلى صعوبات التناول الكلاسيكي للعلاقة المتبادلة بين المكان والزمان. ك.خ) من خلال انكار موضوعية المكان، يمكن . بصعوبة ان تؤخذ بشكل جدي» [٢١، ص ١٣٧]. ولكن، بعض الفيزيائيين (لا نشير هنا إلى الكانطيين الجدد من امثال كاسيرين من الذين ايدوا المفاهيم النسبية، حملوا رأياً معاكساً لمشكلة كانط - اينشتاين. فقد كتب ماكس فون لايبو «لقد توصلت إلى فهم للنظرية النسبية، فقط، عندما نجحت في ربطها مع تعاليم كانط حول المكان والزمان» [٢٢، ص ١٥٩].

ان مثل هذه الاحكام عن دور الفلسفة الكانطية في تفسير النظرية النسبية، تُثبت برأينا النقطة التالية: ثمة مواصفات معينة لادراك النظام الفلسفي المعطى، ومبادئه الأساسية ومسلّماته المنهجية من قبل علماء الطبيعة وعلماء الاجتماع

والكتاب . . الخ ، وتعتمد هذه المواصفات على المستوى الثقافي للعالم ، وعلى وضعه الاجتماعي ، وعلى المسائل التي يعالجها . وتوضح هذه الشروط السبب في التأثير البالغ لماخ على آراء معاصريه من العلماء ، وبالأخص مساعدتهم على فهم ما يجب أن يبحثوا عنه في البنى المعرفية للفيلسوف الفيني لحل مسائلهم .

ان خطأ ماخ واوستفالد ودوهيم وغيرهم ، لا يكمن طبعاً في انتقادهم للعناصر المجسمة «anthropomorphic» جوهرياً والميتافيزيقية في نظام الفيزياء النيوتنية ، اضافة إلى مبادئ معينة من الاسلوب الميتافيزيقي للتفكير . ان خطأهم يكمن في انتقادهم لها ، كما وضع لينين ، من مواقع التجريبية الفلسفية المثالية - الذاتية . وكما اشار كارل ماركس «ان التجريبية التامة تتحول إلى ميتافيزيقية كاذبة ، إلى الفلسفة المدرسية (Scholasticism) ، التي تجهد نفسها في سبيل استنباط الظواهر التجريبية التي لا تُنكر ، من خلال التجريد الشكلي البسيط وبصورة مباشرة من القانون العام ، اوبظهار انسجامها مع ذلك القانون من خلال البرهان الساطع» [٢٣ ، ص ٨٩] . وهذا هو السبب في ان محاولات جعل مقولات المكان والزمان والحركة ، نسبية ، قد انتهت إلى رفض وانكار المحتوى الموضوعي لها . وفي التحليل النهائي ، فشلت الماخية في اعطاء تفسير فلسفي - نقدي لأسس فيزياء نيوتن . ان الذاتية المعرفية التي تقف وراء هذه المحاولات قد اوصلت اصحابها إلى مثالية من النمط البريكلي .

ان التجريبية تقصر موضوع المعرفة العلمية على نتائج الاحساس وترتيبها «Their systematisation» وهي غير قادرة على الاجابة عن كيفية الانتقال من نظام إلى آخر من أنظمة المقولات . واكثر من ذلك ، فان البرنامج التجريبي المتسین ، الذي يقف وراء منطق الادراك العلمي ، يمنع اية امكانية للتفكير بالانتقال من نظام نظري للمعرفة إلى آخر . وفي افضل الحالات ، يمكن ان يُصنف النظام المتحقق للمعرفة من خلال تحديد عناصره الافتراضية «its hypothetical elements» والمقادير غير المنظورة بشكل مباشر ، وبشكل عام ، أي

شيء لا يُعطى فوراً. ان هذه المسألة : الظاهرانية البحت، تفعل القليل لتسهيل عملية حل المهام التي تواجه العلم . وكانت المشكلة الحقيقية التي تشغل بال العلماء لاتزال قائمة .

ثمة متطلبات جديدة يجب فرضها على الجهاز المقولاتي للفيزياء، ويجب ان تتغير مضامين بعض المقولات الاساسية لميكانيك نيوتن، ويجب تحديد مجال فعل المفاهيم الأخرى في حقل السرعة البطيئة والكتل الكبيرة، ويجب توفير البرهان النظري للمقولات الجديدة، بما يعكس الصلات والعلاقات المكتشفة حديثاً، والتي ليس لها نظير ميكانيكي .

لقد ارتبطت النظرية الجديدة عن المكان والزمان والجاذبية بانواع مختلفة للتصور المعرفي لماخ واتباعه بشكل تاريخي اكثر من ارتباطها من الناحية المفاهيمية، او الأصل الواحد .

ان النظرية النسبية لا تستطيع في المبدأ، ان تكون مُستقاة منهجياً من الماخية، وبالتالي لا تستطيع ان تستخدم مبادئها الفلسفية . وهنا تتجلى حقيقة انتقاد اينشتاين الحاد لماخ، الفيلسوف، بعد ان اهتم الأول بالمسائل الفلسفية لعلم الفيزياء . ولم يكتف اينشتاين بالتعبير عن موقفه السلبي ازاء ماخ، بل حدد العنصر الأضعف في بنائه النظري - وهو رفع نتائج الاحساس إلى حالة المطلق، واستخفافه بالدور الخلاق للذات في الادراك . وقد علل الموقف السلبي لماخ واوستفالد من المذهب الذري، بفشلها في فهم الدور المبدع للذات : «ان كراهية هذين الباحثين للنظرية الذرية، يمكن أن تُعزى دون شك الى موقفهما الفلسفي الوضعي . وهكذا فحتى الباحثين ذوي الروح الجريئة والموهبة الفذة، يُمنعون من تفسير الحقائق بسبب التحيز الفلسفي . ان التحيز يكمن في ان الحقائق بذاتها، يمكن ويجب ان تولد معرفة علمية بدون بنية مفاهيمية حرة» [٨، ص ٤٩] .

وربما كان ادراك دور التخيل «imagination» هو السبب الذي جعل مؤسس النظرية الجديدة عن المكان والزمان، يُقيّم عالياً الامكانيات المنهجية في

الفلسفة الكانطية، التي كان يتأخذ موقف سلبي ازائها، بعد انتهاءه من صياغة النظرية النسبية [٢٤، ص ص ٥٠ - ٥١]. ولكن، من المشكوك به، ان تأكيدات اينشتاين، بان النظريات هي ابتكارات حرة للعقل البشري، وبعدم وجود سبيل من التطبيق إلى النظرية. الخ، كانت موجّهة ضد الماخية، وضد الخط الوضعي في الفلسفة بشكل عام*.

ان رفع التجريبية إلى حالة المطلق، قد اوصلت ماخ لا إلى عدم تصديقه بالنظرية النسبية بسبب صفتها الدوغمائية المزعومة، بل إلى موقف صارم ضد المذهب الذري. وعندما وجد نفسه ضد المادية النقدية لبلانك، كتب ماخ ان الاختلاف الاساسي في الرأي حول الفيزياء المعاصرة، يكمن في (الايمان بواقعية الذات). ان الفيزيائيين يمتلكون كل المقدمات لاكتشاف الصواب، واضاف ماخ، اذا كان الايمان بواقعية الذرات جوهرياً، فانه سيتخلى عن الاسلوب الفيزيائي للتفكير، ولن يرغب بان يكون فيزيائياً حقيقياً، وسيتخلى عن اية ادعاءات بلقب العالم، لأن حرية الفكر عزيزة عليه. [انظر ٢٥].

ولا حاجة للتعليق هنا من ان المواقف الفلسفية الخاطئة لماخ، قد جعلت منه معارضاً للنظريات الفيزيائية الاساسية في القرن العشرين. ولهذا فان تعبير بريجمان في ان محاولة ماخ في تحليل النظرية الفيزيائية تتعلق بالمراقبة «Observation» اكثر من تعلقها بنائها الفوقي الميتافيزيقي، قد اثبتت انتصارها [انظر ٢٦، ص ٨٠] يبدو غريباً تماماً، فلم يستطع بريجمان، على نحو مميز، في مقالته (ارنست ماخ والفيزياء المعاصرة) ان يحدد حقيقة واحدة لتبيان التأثير الايجابي لافكار ماخ الفلسفية، على البحث المنهجي المعاصر في الفيزياء. ولم يكن ذلك صدفة. ان السبب يكمن في الاختلاف الاساسي بين اسلوب تطور

* - ان امكانية التفسيرات المختلفة لهذه التأكيدات ونوعيتها القابلة للنقاش تنبع من غموضها، او من طبيعتها الفلسفية.

علم الطبيعة في القرن العشرين، وبين المبادئ المنهجية الأساسية لماخ واتباعه. لهذا نجد صدقاً أكثر في نقد تجريبية ماخ من قبل الفيلسوف الأمريكي روبرت س. كوهين: «ان برنامجه للتحليل الفلسفي للعلم شديد الشبه بكمبيوتر مبرمج ذي سرعة عالية» [٢٧، ص ١٤٤].

لقد وُلد تطور العلم المعاصر ادراكاً لاستحالة قبول واستساغة المبادئ الأساسية للوضعية التقليدية. فلم يفقد ماخ فقط منزلته في العلم المعاصر، بل ايضاً الآخرون من امثال كارناب ورشنيباخ.

ان مسائل تزايد المعرفة وآلية تطورها، ودور العوامل الاجتماعية - ثقافية، كل هذه المسائل المرتبطة مع الوضعية التقليدية، قد جرى بحثها بشكل واسع في المنهج المعاصر للعلم. وهذا دليل على عمق الاختلاف بين المبادئ الأساسية لفلسفة ماخ والاتجاهات الأساسية للادراك العلمي في القرن العشرين.

لقد تغلب العلم على (الخوف من الميتافيزيقية)، الذي وحسب تعبير اينشتاين قد «بات علة التفلسف التجريبي المعاصر» [١، ص ٢٨٩]. ان تاريخ المعرفة قد عزز واثبت نبوءة مؤسس الميكانيك النسبي «ان المرء بعد كل هذا، لا يستطيع ان ينسجم مع (الميتافيزيقية)» [١، ص ٢٩١]. وهذا اثبات على تعارض نظرية ماخ في المعرفة مع اينشتاين.

المصادر

مصادر المقالة الأولى

- ١ - أ. اينشتاين، افكار وآراء، دار كرون، نيويورك، ١٩٥٤ .
- ٢ - أ. اينشتاين، (ملاحظات حول نظرية المعرفة لبرتراند روسل)، ب. أ. شليب (فلسفة برتراند روسل) جامعة نورث ويسترن، ايفانستون وشيكاغو، ١٩٤٤ .
- ٣ - انجلز (ديالكتيك الطبيعة)، دار التقدم، موسكو ١٩٧٤ .
- ٤ - أ. اينشتاين (ملاحظات متصلة بمقالات ظهرت في آن واحد في مجلد مشترك) ب. أ. شليب (البرت اينشتاين: الفيلسوف - العالم)، ايفانستون، اليونيس ١٩٤٩ .
- ٥ - أ. اينشتاين «ارنست ماخ» المجلة الفيزيائية، سنة ١٧ / العدد ٧ / ١٩١٦ .
- ٦ - أ. اينشتاين (المذكرات)، ب. أ. شليب (البرت اينشتاين: الفيلسوف - العالم)، ايفانستون اليونيس ١٩٤٩ .
- ٧ - حوار بين رابندرانت طاغور والبروفسور البرت اينشتاين، ١٤ يوليو ١٩٣٠ . مجلة مودرن ريفيو، عدد ١، كلكتا ١٩٣١ ص ٤٢ .
- ٨ - أ. اينشتاين (رسائل إلى موريس سوليفين)، كوتير - فيلارس، باريس ١٩٥٦ .
- ٩ - فردريك هنريك، البرت اينشتاين: حياة من اجل الحقيقة والانسانية والسلام، دار نشر ديرمورجن، برلين ١٩٦٧ .
- ١٠ - مقتبس من ماكس بلانك، إلى اين يسير العلم؟ الين واونوين لندن ١٩٣٣ .

- ١١- أ. اينشتاين (جوابي حول التجمع المعارض للنظرية النسبية) ورد الاقتباس من الجريدة اليومية البرلينية ٢٧/٨/١٩٢٠.
- ١٢ - أ. اينشتاين ، معنى النسبية ، جامعة برينكتون ، نيوجرسي ١٩٥٥ .
- ١٣ - رسالة من الدكتور اينشتاين إلى هيربرت صاموئيل ١٣/١٠/١٩٥٠ . هيربرت صاموئيل : اطروحة في الفيزياء ، هاركورت ، براس وكوبي ، نيويورك ١٩٥٢ ، ص - ص ١٥٩ - ١٦٠ .
- ١٤ - أنجلز (انتي دوهرنغ) دار التقدم ، موسكو ١٩٧٥ .
- ١٥ - أنجلز (ليودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية) ، كارل ماركس وفريدريك انجلز، المختارات ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، دار التقدم ، موسكو ١٩٧٣ .
- ١٦ - اينشتاين ، الدين الكوني مع آراء اخرى واقوال مأثورة ، دار كوفيسي - فريد ، نيويورك ١٩٣١ .
- ١٧ - اينشتاين ، حول تعميم نظرية الجاذبية ، سانيتفك امريكان ، مجلد ١٨٢ ، عدد ٤ ابريل ١٩٥٠ .
- ١٨ - اينشتاين ، نظرية الحقل الجديد ، التايمز ، ٥ فبراير ١٩٢٩ .
- ١٩ - رودلف كاسير ، سبينوزا ، بورتريت لبطل روحي ، مع مقدمة بقلم اينشتاين ، نيويورك ١٩٤٦ .
- ٢٠ - اينشتاين (الفيزياء ، الفلسفة والتقدم العلمي) مجلة كلية الجراحين الدولية ، مجلد ١٤ ، عدد ٦ ، شيكاغو ، ديسمبر /٩٥٠/ .
- ٢١ - أ. اينشتاين ، في الذكرى المثوية لميلاد اللورد كليفن ، مجلة العلوم الطبيعية ، العدد ٣٠ السنة الثانية عشر ١٩٢٤ .
- ٢٢ - لينين ، المادية ومذهب النقد التجريبي ، المؤلفات مجلد ١٤ ، دار التقدم ، موسكو ١٩٦٢ .
- ٢٣ - لينين ، نظرة شاملة على كتاب هيغل علم المنطق ، المؤلفات المجلد ٣٨ ، دار التقدم ، موسكو ١٩٦١ .
- ٢٤ - غاليلو غاليلي ، حوار حول النظامين الاساسيين في العالم - بطليموس وكوبرنيكوس ، ترجمة ستلمان دراك . تقديم اينشتاين ، دار نشر جامعة كاليفورنيا بريكلية ولوس أنجلس ١٩٥٣ .

مصادر المقالة الثانية

- ١ - ب. أ. شليب (الناشر). ألبرت اينشتاين: الفيلسوف - العالم، ايفانستون، ١٩٤٩.
- ٢ - بريجهان. طبيعة بعض مفاهيمنا الفيزيائية، نيويورك، ١٩٥٢.
- ٣ - آراء وافكار لألبرت اينشتاين، دارنشر كرون، المكتبة الفلسفية، نيويورك، ١٩٥٤.
- ٤ - بريجهان. طبيعة النظرية الفيزيائية، طباعة جامعة برينكتون، برينكتون، ١٩٣٦.
- ٥ - أ. اينشتاين، ل. انفيلد: تقييم الفيزياء. سايمون وشوستر، نيويورك ١٩٦١.
- ٦ - كارل. ر. بوهر: منطلق الاكتشاف العلمي، هوتجنسون وشركاه، لندن، ١٩٦٠.
- ٧ - هايزنبرغ: «النظرية، النقد والفلسفة». في: من تاريخ الفيزياء. محاضرات مسائية في المركز الدولي للفيزياء النظرية، ترستي، ايطاليا، الوكالة الدولية للطاقة الذرية، فينا، ١٩٦٩.
- ٨ - بريجهان: انعكاسات العالم الفيزيائي. المكتبة الفلسفية، نيويورك، ١٩٥٠.

مصادر المقالة الثالثة

- ١ - ألبرت اينشتاين، آراء وافكار، دارنشر كرون، نيويورك، ١٩٥٤.
- ٢ - أ. اينشتاين، مقالة في العلوم، طبعة جديدة، مجلد ٩١، ١٩٤٠.
- ٣ - و. هايزنبرغ. المبادئ الفيزيائية ونظرية الكم، دارنشر فون س. هيرزل، لايبزغ ١٩٤٢.
- ٤ - ب. أ. شليب (الناشر). ألبرت اينشتاين: الفيلسوف - العالم، ايفانستون، (النيبوس)، ١٩٤٩.
- ٥ - المجلة الفيزيائية، مجلد ٤٧، العدد ١٠، الطبعة الثانية، ١٩٣٥.
- ٦ - نيلز بوهر. حول مسألة قابلية قياس المجالات الكهرومغناطيسية، ١٩٣٣.
- ٧ - مؤتمر الفيزياء، الراديولوجيا والبايولوجيا والفيزياء الذرية، بولوجنا، ١٩٣٧.
- ٨ - مبدأ التمامية والديالكتيك المادي، اويتيتسك، ١٩٧٢.
- ٩ - لويس دي بروجلي، مقدمة حول الموقف من الميكانيك الكمي، مكتبة هيرمان العلمية، باريس، ١٩٣٠.

- ١٠ - البرت اينشتاين، الفيزياء والواقع، في: افكار وآراء لألبرت اينشتاين.
- ١١ - الطبيعة، مجلد ١٣٦، العدد ٣٤٢٨، ١٩٣٥.
- ١٢ - آ. اينشتاين ول. انفيلد، تطور الفيزياء، سايمون وشوستر، نيويورك ١٩٦١.
- ١٣ - آ. اينشتاين، ميكانيك الكم والواقع. في: الديقالكتيك، مجلد ٢، العدد ٣، ٤، نيوجاتل، سويسرا.
- ١٤ - آ. اينشتاين، ملاحظات تمهيدية حول المفاهيم الاساسية، في: لويس دي بروجلي (physicien et penseur)، الناشر ألبين ميشيل، باريس، ١٩٥٣.
- ١٥ - الديقالكتيك، العدد ٢، ١٩٤٨.
- ١٦ - الفلسفة في اواسط القرن، دراسة ميدانية، فيرنز، ١٩٥٨.
- ١٧ - ف. أ. فوك، حول تفسير ميكانيك الكم، في: القضايا الفلسفية للعلوم الطبيعية المعاصرة، دار نشر ناوؤ كا، موسكو، ١٩٥٩.
- ١٨ - ف. أ. فوك، ميكانيك الكم وبنية المادة، في: بنية واشكال المادة، موسكو، ١٩٦٧.
- ١٩ - ف. أ. فوك. ميكانيك الكم وقضايا فلسفية، دار نشر ناوؤ كا، موسكو، ١٩٧٠.
- ٢٠ - ف. أ. فوك. اسس ميكانيك الكم، موسكو، ١٩٧٦.
- ٢١ - ب. يا. باخوموف، نسبة نمط التفاعل والتفسير الموضوعي لميكانيك الكم، في: الفلسفة والفيزياء، الكتاب الأول، جامعة فرونزا، فرونزا ١٩٧٢.
- ٢٢ - ديفيد بوهم، نظرية الكم كدلالة على نظام جديد في الفيزياء، الجزء الأول، تطور أنظمة جديدة في مسار تاريخ الفيزياء، في: اسس الفيزياء، مجلد ١، عدد ٤، ١٩٧٠.
- ٢٣ - ديفيد بوهم، المصدر السابق، الجزء الثاني، النظام الظمني والنظام الصريح في القانون الفيزياء، في: اسس الفيزياء، مجلد ٣، عدد ٢، ١٩٧٣.
- ٢٤ - ديفيد بوهم وب. هيلي، بصدد الفهم البديهي للامركزية المطبق في نظرية الكم، في: اسس الفيزياء، مجلد (٥)، عدد ١، ١٩٧٥.
- ٢٥ - قضايا السببية في ميكانيك الكم، دار نشر الآداب الأجنبية، موسكو، ١٩٥٥.
- ٢٦ - جون فون نيومان، الاسس الرياضية لميكانيك الكم، طباعة جامعة برينكتون، برينكتون، ١٩٥٥.
- ٢٧ - ج. س. بيل بصدد مفارقة اينشتاين - بودولسكي - روسن، في: الفيزياء، مجلد ١، عدد ٣، نيويورك، ١٩٦٤.

- ٢٨ - ج. س. بيل، بصدد قضية المتغيرات المخفية في ميكانيك الكم، في: مجلة الفيزياء المعاصرة، مجلد ٣٨، عدد ٣، ٤، ١٩٦٦.
- ٢٩ - رسالة اينشتاين إلى بورتي ١٢/٥/١٩٥٢، البرت اينشتاين وهيدفيك وماكس بورن: الرسائل المتبادلة في الفترة ١٩١٦ - ١٩٥٥ دار نشر، نيمنبيرغر، ميونخ، ١٩٦٩.

مصادر المقالة الرابعة

- ١ - فريدريك انجلز. ديالكتيك الطبيعة، دار التقدم، موسكو ١٩٧٤.
- ٢ - لينين «ملاحظات حول كتاب هيغل (علم المنطق)»، المؤلفات جزء ٣٨، دار التقدم موسكو ١٩٦١.
- ٣ - ماكس بورن التجربة والنظرية في الفيزياء، منشورات دوفر، بالتعاون مع ان. واي ١٩٥٦.
- ٤ - ب. أ. شليب. البرت اينشتاين، الفيلسوف.. العالم، ايفانستون، اليونيس ١٩٤٩.
- ٥ - نشرة الجمعية الفرنسية للفلسفة، ٢٢ (١٩٢٢)، مقتبس من المجلة الفيزيائية العدد ١٢، ١٩٥٩.
- ٦ - ام. اي. اومليانوفسكي. «بصدد ملاحظة فردريك هنريك عن رسالة البرت اينشتاين إلى ارنست ماخ» قضايا فلسفية عدد ٦، ١٩٦٠.
- ٧ - لينين «المادية ومذهب النقد التجريبي» المؤلفات جزء ١٤، دار التقدم موسكو ١٩٦٢.
- ٨ - لينين «بصدد أهمية المادية العنوية» المؤلفات جزء ٣٣ دار التقدم موسكو ١٩٦٦.

مصادر المقالة الخامسة

- ١ - اينشتاين (ملاحظات حول نظرية برتراند روسل في المعرفة)، في: ب. أ. شليب. فلسفة برتراند روسل، جامعة نورث ويمستر، ايفانستون وشيكاغو ١٩٤٤.
- ٢ - ج. هيلتون (اين هي الواقعية؟ اجوبة اينشتاين في العلم والتركيب) جالياهو باريس ١٩٦٧
- ٣ - المجلة الفيزيائية، العدد السابع، ١٩١٦.
- ٤ - بيير دوهم (النظرية الفيزيائية، موضوعها، بنيتها) مارسيل ريفير، باريس ١٩١٤.

- ٥ - ماكس بلانك (وحدة الصورة الفيزيائية للكون : معالجات ومحاضرات فيزيائية) براونشفايخ ١٩٥٨ .
- ٦ - نشرة الجمعية الفرنسية للفلسفة، عدد ٢٢، ١٩٢٢ .
- ٧ - فردريك هنريك (حول رسالة ألبرت اينشتاين إلى ارنست ماخ) الدفاتر الفلسفية . الجزء ١٢، موسباخ - بادن، ١٩٥٩ .
- ٨ - ب. أ. شليب: ألبرت اينشتاين: الفيلسوف - العالم، ايفانستون ١٩٤٩ .
- ٩ - جوزيف بيتزولد (العلاقة بين العالم الفكري الماخوي والنظرية النسبية - الملحق). في ارنست ماخ: تاريخ الميكانيك. لايبزك ١٩٢١ .
- ١٠ - أ. ف. فاسيليف (المكان، الزمان، الحركة. الاسس التاريخية للنظرية النسبية). بتروغراد ١٩٢٢ .
- ١١ - د. و. شيما (الاسس الفيزيائية للنسبية العامة) نيويورك ١٩٦٩ .
- ١٢ - م. ي. اومليانوفسكي . (حول ملاحظة فردريك هنريك عن رسالة ألبرت اينشتاين إلى ارنست ماخ) في: قضايا فلسفية، العدد ٦، ١٩٦٠ .
- ١٣ - ف. هنريك: ألبرت اينشتاين: حياة من اجل الحقيقة والبشرية والسلام. برلين ١٩٦٣ .
- ١٤ - ب. ج. كوزنتسوف (اينشتاين) اصدار اكااديمية العلوم السوفيتية، موسكو ١٩٦٢ .
- ١٥ - ب. ف. كوين (الاسس المنطقية للعلم). دار العلم، كيف، ١٩٦٨ .
- ١٦ - م. بورن. (الفيزياء في جيلي) اوراق مختارة، دار بيرجامون، لندن، نيويورك، ١٩٥٦ .
- ١٧ - ك. خ. ديلوكاروف (المسائل الفلسفية للنظرية النسبية - عرض للمناقشات الفلسفية في الاتحاد السوفيتي خلال العشرينات والثلاثينات) موسكو ١٩٧٣ .
- ١٨ - ف. س. اوكلوف (حول مسألة تقييم نظرة اينشتاين للعالم ١٩٠٥ - ١٩٣٦) في: محاضرات ن. أ. نيكاراسوف، معهد كوستروما لأصول التدريس . الكتاب ٢٥، العلوم الفلسفية، كوستروما، ١٩٧١ .
- ١٩ - أ. ماخ: (تحليل الاحاسيس والعلاقة بين الفيزيائي والسيكولوجي)، الطبعة التاسعة، يناير ١٩٢٢ .
- ٢٠ - أ. ماخ (الادراك والخطأ. عن سيكولوجيا البحث). ليبزك ١٩٠٥ .
- ٢١ - أ. اينشتاين (النسبية، النظرية العامة والنظرية الخاصة) لندن ١٩٦٤ .

- ٢٢ - ماكس فون لايبو: (مجموعة الكتابات والمحاضرات) المجلد الثالث، براون شفابك، ١٩٦١.
- ٢٣ - كارل ماركس: نظريات فائض القيمة، المجلد الرابع لرأس المال، الجزء الأول، دارالتقدم، موسكو ١٩٧٥.
- ٢٤ - م. ي. م. جودينوف (النظرية النسبية والفلسفة)، دار بوليتنر دات، موسكو ١٩٧٤.
- ٢٥ - مجلة سينشيا، المجلد ٨، برلين، ١٩١٠.
- ٢٦ - ب. ج. بيرجمان: (ارنست ماخ والفيزياء الحديثة) في مجلة سينشيا، مجلد ٧ عدد ١٤، برلين ١٩١٠.
- ٢٧ - روبرت. س. كوهين (ارنست ماخ: الفيزياء، الادراك الحسي وفلسفة العلم) في: مجلة البحث، مجلد ١٨، العدد ٢-٣، ١٩٦٨.

إشارة

جرى ترتيب المقالات دون الإشارة الى اسم مؤلف المقال . وهنا نشير الى اسم المؤلف واسم المقالة .

- د . ب . جريبانوف : اينشتاين النظرة الفلسفية للعالم
- ي . م . جولينوف : اينشتاين والنزعة الاجرائية لـ (بريجمان)
- س . ف ايلاريونوف : جدل اينشتاين - بوهر
- م . ي . اومليانوفسكي : اينشتاين أسس الفيزياء الحديثة (المادية الديالكتيكية)
- ك . خ . ديلوكاروف : حول العلاقة بين اينشتاين وماخ

الفهرس

٥ تقديم
٧ اينشتاين النظره الفلسفيه للعالم
٣٥ اينشتاين والنزعه الاجرائيه لـ(بريجمان)
٥١ جدل اينشتاين - بوهر
٧١ اينشتاين أسس الفيزياء الحديثه (الماديه الديالكتيكيه)
٧٩ حول العلاقه بين اينشتاين وماخ
٩٩ المصادر

اينشتاين

والقضايا الفلسفية

لفيزياء

القرن العشرين

يشمل هذا الكتاب خمس دراسات مقارنة، تهدف إلى توضيح المواقف الفلسفية لاينشتاين تجاه الفلسفة الماخية والوضعية الجديدة والنزعة الاجرائية. اضافة الى توضيح النظرة الفلسفية لهذا الفيزيائي للعالم، وارتباط أسس الفيزياء الحديثة بالمادية الديالكتيكية. ونأمل أن تتمكن هذه الدراسات من توضيح حقيقة المواقف الفلسفية لهذا الفيزيائي العظيم، التي شابها الكثير من الغموض.

الناشر

السعر ٧٥ ل.س